

كتاب الشباب

الهروب من الجحيم



أحمد عبدالسلام البقالي

قصص

مكتبة العبيكان



الْفُرُوب من الْجَحِيم

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة البقالي

ح مكتبة العبيكان ، ١٤١٧ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبد السلام

الهروب من الجحيم . - الرياض .

... ص ؛ ... سم . - (سلسلة كتاب الشباب)

ردمك ٣ - ٢٣١ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١ - القصص البوليسية العربية أ - العنوان ب - السلسلة

١٧ / ٠١٣٩

ديوي ٠٨٧٢ ، ٨١٣

رقم الإيداع : ١٧ / ٠١٣٩

ردمك ٣ - ٢٣١ - ٢٠ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ

الطبعة الثانية - مكررة

١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م

حقوق الطبع محفوظة للناسر

الناسر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

أَمْسَكَتْ (وَزْدَةً) بِيَدِ ابْنِهَا الْوَحِيدِ (إِهَابٍ)، وَنَزَلْتُ مَعَهُ إِلَى
بَابِ الْعِمَارَةِ لِتُرْسِلَهُ إِلَى الْمَدْرَسَةِ .

وَعَلَى بَابِ الْعِمَارَةِ وَقَفْتُ تُسَوِّي غِطَاءَ رَأْسِهِ الْفَرْوِي،
وَمِغْطَفَهُ الصُّوفِي الثَّقِيلَ، وَتَقُولُ لَهُ :

- لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا فِي الطَّرِيقِ . وَإِذَا سَأَلَكَ أَحَدٌ : مَنْ أَنْتَ ؟
فَلَا تُجِبْ .

وَأَعَادَ هُوَ مَعَهَا :

- وَعُدَّ رَأْسًا إِلَى الدَّارِ بَعْدَ نِهَايَةِ الْمَدْرَسَةِ . وَلَا تَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ !
كَانَ قَدْ حَفِظَ نَصَائِحَ أُمِّهِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ لِكَثْرَةِ مَا سَمِعَهَا،
وَكَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ بِلُغُوغِهِ سَنَ الْعَاشِرَةِ قَدْ كَبُرَ، وَلَمْ يَعْذُ فِي حَاجَةٍ
إِلَى نَصَائِحِ صَبْيَانِيَةٍ . فَأَقْفَلَتْ زِرَّ مِغْطَفِهِ الْأَعْلَى، وَأَضَافَتْ
مُؤْنَبَةً لَهُ عَلَى مُحَاكَاتِهِ لَهَا :

- وَلَا تَتَبَجَّحْ بِذَكَائِكَ !

وانحنث له فقبل خذها وقبلت خذّه وصرفته ووقفت تنظر
إليه وهو يتعد على رصيف الشارع العريض المغطى بثلج
جديد.

وذهب إهابٌ يشقُّ طريقه وسط الثلج الناصع، وعلى ظهره
قِمَطْرٌ^(١) كتبه، وهو ينثفُ البخار من فيه.

ورفع عينيه إلى إحدى العمارات الشاهقة، فرأى وجه (الموجّه
الأعظم) يُطلُّ عليه من صورة بحجم واجهة العمارة. ونظر إلى
الأرض متذكراً نصيحة أمّه. ولكنّه سرعان ما أدرك أنها مجرد
صورة، فلا بأس عليه من النظر إليها.

وعاد ينظر إلى الوجه الهائل والرأس الأضلع، والحاجبين
الكثين واللحية العظيمة المنتشرة على صدره المغطى بالأوسمة
والنياشين بجميع ألوان قوس قزح. وقرأ تحت الصورة:
«مارليست: الموجّه الأعظم».

وكانت صورة «مارليست»، الحاكم العام لملكة الصقيع
الأكبر، مرسومة أو مُعلّقة على كلّ جدار، لا تكاد تخلو منها

(١) القِمَطْرُ: ما تصان فيه الكتب، أي حقيبة الكتب المدرسية.

مؤسّسةً ، أو حديقةً أو مكانً يمرُّ به إنسانٌ أو لا يمرُّ به أيُّ
إنسان . . .

وفي المدرسة كانتِ الدروسُ تبدأ بتحيّته ، وتنتهي بتحيّته .
وكلُّ إنشاءٍ أو نشيدٍ أو شعرٍ لا بدَّ أن يتناولَ جانبًا من جوانبِ
عُبْرِيَّة «الموجه الأعظم مارليست» العظيم .

ولَقِيَ إهابٌ زميلًا له في المدرسةِ فانضمَّ إليه ، وسارا جنبًا إلى
جنب .

وفي المساء خرج إهابٌ من المدرسة عائداً إلى منزله . وما كاد
يفترق عن زميله ويتوجّه نحو عمارته حتى سمع حركة سريعة
خلفه . والتفت فإذا رجلٌ نحيفٌ طويلٌ لا يلبس معطفاً ، وبلا
غطاءٍ رأسٍ يجري في اتجاهه .

كان يبدو عليه المرض أو الإرهاق الشديد . كانت عيناه
غائرتين مُحاطتين بالسَّوادِ ، ويشعُّ منهما الرُّعبُ الشديد ،
وكأنه رأى شبحاً أو مارداً من الجن !

كان يضمُّ إلى صدره مجلداً ضخماً . وحين تساوى مع إهاب
الذي فسح له الطريق حتى لا يصطدم به وقف الرجلُ ، ونظر
خلفه ، ومدَّ المجلد إليه :

- خذ يا ولدي . خذه لأبيك ، وقل له أن يأخذه إلى بلاد
الشمس !

ثم انطلق يحدو ، ويتزلق فوق ثلج الصُّباح الذي كان قد
تجلد . ثم يقوم ويعود إلى العَدُوِّ بإضرار كبير ، حتى اختفى في

أحدِ الشوارعِ الجانبيةِ .

وفي اللحظة نفسها سمِعَ زعيقَ ^(١) سياراتِ الشرطَةِ ، ووقعَ
حواضر الخيلِ وِراءَهُ ، فالتصَّقَ بالحائطِ ، ووقفَ يتفرَّجُ عَلَيْهَا
وهي تمرُّ أمامه مطاردةً الرجلَ الهاربِ .

وتوقف عنده أحدُ فرسانِ الشرطَةِ ، والشررُ يتطايرُ من
عَيْنَيْنِ في زُرْقَةِ الجليدِ وبُروَدَتِهِ في وجههِ الخشبيِّ المُرَبَّعِ :

- هل رأيتَ رجلاً طويلاً يَجْري؟

وضمَّ إهابُ المجلَّدِ إلى صَدْرِهِ ، ونظرَ إلى الفارسِ الهائلِ
المكسُوِّ بالفروِ من أعلاه إلى أسفلهِ ، وحرَّكَ رأسَهُ بالنفي .

ولوى الفارسُ عُنُقَ جِوَادِهِ ، وتابَعَ طَرِيقَهُ غيرَ راغبٍ في
إضاعةِ وقتهِ مع هذا الطفلِ الصغيرِ .

وارتعدت فرائضُ ^(٢) إهابِ طولَ بقيةِ الطريقِ إلى عمارتِهِ رعباً
من مشهَدِ الرجلِ الهاربِ والفارسِ الضخمِ المُخيفِ . . .

(١) زعيقُ : أي صوت السيارات المرتفع .

(٢) الفَرَائِضُ : هي لحمَةٌ بين الكَتِفِ والصَّدْرِ ترتعد عند الفزع . ولكل إنسان
فريصتان .

وفي مَدْخَلِ العِمَارَةِ نَظَرَ حَوَالِيهِ . وَحِينَ لَمْ يَرَ أَحَدًا ، أَنْزَلَ
الْقِمَاطَ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِهِ وَوَضَعَ بِدَاخِلِهِ الْمَجْلَدَ وَأَعَادَهُ إِلَى ظَهْرِهِ ،
ثُمَّ صَعَدَ السَّلَامَ يَلْهَثُ .

وفتحت له باب الشقة جارة من جيرانهم الثلاثة . فقد كانت كل عائلة تسكن غرفة واحدة في الشقة .

ودخل إهاب إلى غرفة أهله . ولم تكن أمه ولا أبوه قد عادا من عملهما بعد ، فوضع قمطره فوق سريره . ونزع قُبَّ (١) رأسه الفروي ، وخرج من معطفه ، ووقف ينظر إلى القمطر الذي يحتوي سرّه الرّهيب

وبعد لحظة تردّد مدّ يداً مرتعشة إلى قفل القمطر ففتحه ، وأخرج المجلّد ، وقعد على جانب السرير وفتحه فأدهشه ما رأى . كانت صفحاته تكاد تنطق بجمال الرسوم اليدويّة التي رُسمت عليها لوحات ملوّنة بألوان زاهية تشيع منها البهجة والحبور (٢)

وأخذ يتصفّح الكتاب فإذا هو يحتوي على رسوم لجميع

(١) قُبَّ رأسه : أي غطاء رأسه ، وهو غطاء مستدير مجوف من الفرو يستخدم في الشتاء .

(٢) الحبور : السرور .

مشاهد الحياة من وجوه وحيوانات وأشجار وأزهار وطيور،
كلها بألوانٍ بديعة لا تكاد توجد في مملكة الصقيع الكالحة
الكثيبة دائماً.

ورغم أن برنامجهُ المفضل كان يمرُّ على التلفزيون فإنه لم
يشغله، وفصلَ التفرُّج على رسومِ المجلد.

وفتح إهاباً فمه وهو ينظرُ بإفتانٍ إلى تلك الرسوم . . وبهرته
أنواعُ العصافير والنوارس والوزُّ والبطِّ واللقاق والخطاطيف
والبيغاوات الملونة.

وتوقَّف مشدوهاً عند مشهد الكراكي^(١) وهي تحوُّض
مُستنقعا أسناً بسيقانها الطويلة، تلوي أعناقها الأنيقة،
وتتحرك في مهاية بريشها الأبيض وأطرافها الوردية الفاتحة.

ووقع إهابٌ في حبِّ المجلد، فلم يشعر وهو يتصفحه
صفحةً صفحة حين طرقت أمه الباب لأول مرة.

وحين تكرر الطرُق وارتفع صوته أسرع إلى قفل الكتاب
وإخفائه تحت سريوه ثم ذهب يفتح الباب لأمه.

(١) الكُرْكِي: طائر كبير، أغبر اللون، طويل العنق والرجلين، أتر الذنب، قليل
اللحم، يأوي إلى الماء أحياناً.

ودخلت أمه فَحَدَجَتْهُ بنظرة شكٍّ، وسألت :

- لماذا لم تفتح من قبل ؟ ماذا كنت تفعل ؟

ونظر هو إليها بعينيه الواسعتين ، وقال معتذراً :

- لم أسمعك تطرقين .

وكانت أمه قد نَزَعَتْ مِغْطَفَهَا الثقيل وقبَّ رأسها وقَفَّازِي يَدَيْهَا ، ودخلت إلى المطبخ الصغير المُلْحَقِ بالغرفة لتهيئ العشاء .

وعادَ إهابٌ فأخرج المجلدَ العجيبَ من تحتِ سريره ، ووضعهُ فوقَ مكتبهِ الصغيرِ في ركنِ الغرفة ، وأشعلَ مضباحه ، وجلسَ يتصفَّحُه ، ويسترقُّ النظرَ إلى أمه في المطبخ حتى لا تفاجئه .

وطرقَ أبوه «الدكتور يوسفُ النطاسي» البابَ ، فوضَعَ فوقَ المجلدِ أحدَ كُتُبِهِ وذهب يفتح له . ودخل أبوه هو الآخر مثقلاً بملابسه كَدْبٌ كبير، وانحنى فقبَّلَ إهاباً ، وتعلَّقَ هذا بعنقه وطبع على خدّه الباردِ قبلةً حارةً .

وجلس الثلاثةُ يتعشَّون قبالَةَ جهازِ التلفزيون في صمتٍ . كان المذيعُ يقرأ نشرةَ الأخبار . ولما لم تكنْ تهمُّ إهاباً كثيراً فقد كان لا يعيرها كبيرَ اهتمام .

إلا أنه هذه المرة لفت نظره على الشاشة المنورة وجهه يعرفه .
ليس جيدًا ، ولكنه سبق أن رآه . وتوقف عن مضغ لقمته حين
عرف أنه هو الرجل الهارب نفسه الذي كان يطاردُه رجالُ
الأمْنِ ، والذي أعطاهُ المجلدَ لِيَسْلَمَهُ لأبيه ويقول له أن يأخذه
إلى بلاد الشمس . . .

وقال المعلقُ :

« ولكنَّ المجلدَ المحرَّم لم يكن في حوزته ، ويقول إنه سقطَ
منه أثناء مطاردته . ولكنَّ المُرَجَّح أنه أعطاهُ لأحدِ أصدقائه من
أعداءِ الدولة . فمن عثر عليه أو عرف عنه شيئًا فليبلغ رجالَ
الأمْنِ في الحال ، وإلاَّ . . . » .

وأخذ يعدُّ أنواعَ العقوباتِ الرهيبة التي سيتعرَّضُ لها الخونةُ
المتعاونونَ . فسأل إهابٌ بِبرءاة :

- يا تُرى ما هي الرسومُ المحرَّمة التي يستحقُّ عليها كلُّ هذه
العُقوباتُ ؟

والتفتَ إليه أبواه معًا في اللحظة نفسها .

- اششش !

وأشارت أمه إلى أذنها ثمَّ إلى الباب، فأعاد إهابُ السؤالِ
هامسًا، فأجاب أبوه:

- كلُّ رسمٍ لا يتعلق بتمجيد الموجه الأعظم فهو محرَّم.
- حتى ولو كان زهرة أو فراشة أو كركيًا من كراكي البحيراتِ
الوردية؟

وأسكتَهُ أبوه، وعادَ إلى الإنصاتِ للأخبار والأكل.

وكانَ اليومُ الموالي يومَ أحدٍ . وهيأتُ أمه طعامًا لتأخُذه إلى
الملجأ الذي تقيمُ فيه جدًّا إهابٍ لأمِّه وأبيه ليقضيا النهارَ معهما
هناك .

واعْتَذرَ إهابٌ عن الذهابِ معهما بأنَّ عليه أن يُراجِعَ دروسه
للامتحانِ القريبِ ، فلم يُعارضَا ، وتركْتُ له أمُّه غداءه ،
وأوصتُهُ باجتناِبِ الشقاوَةِ ، ثمَّ خرجَا .

وذهبَ إلى صُنْدُوقِ لُعبِهِ بالمطبخِ ، فأخرجَ من قَعْرِهِ المجلدَ
المحرَّمِ ، وأخذه إلى طاوِلَتِهِ ، وانكبَّ على ما كان بقي له من
رُسوم .

كانَ يتبَّعُها بكلِّ دَقَّةٍ على الورقِ الشَّفَافِ ، ثمَّ يَبْدَأُ بتلوينها
ويتركُها إلى غيرها ليعودَ إلى تلوينها فيما بعد .

وفي مُتَصفِ المجلدِ ، أحسَّ أنه قادِرٌ على النَّقْلِ بالنظرِ دونَ
التَّبَعِ على الورقِ الشَّفَافِ ، فَتَضَاعَفَتْ سُرْعَةُ نَقْلِهِ وجودَةُ
الصُّورِ .

ولم يَجُنْ موعِدُ رجوعِ والديه حتى كان قد انتهى من نقل
جميع رسومِ المجلدِ المحرَّمِ ، وأحسَّ بسعادةٍ عظيمةٍ ، وكأنَّ كلَّ
تلك المناظرِ الخلَّابةِ والألوانِ البديعةِ انطبعت في مكانٍ ما
بداخله . . .

كان يُحسُّ بعُمقٍ أنه اكتشفَ عالماً عجيباً رائعاً يريدُ أن
يعيشَ فيه إلى الأبد . . . وأنَّ شيئاً جديداً وُلِدَ في أعماقه ، وتفتَّح
كما تتفتَّحُ الأزهارُ اليانعة . . .

وشعَرَ بأنه قادرٌ على إعادةِ رسمِ جميعِ رسومِ المجلد من
ذاكرته بجميع تفاصيلها وظلالها وألوانها . . .

وأحسَّ برغبةٍ عارمةٍ في إشراكِ أحدٍ في فرحته العظيمة ، في
الحديثِ إلى فتى في سنِّه والإعرابِ له عن مشاعره الجيَّاشةِ
وعرضِ رسومه عليه والاستمتاعِ بإعجابه واندهاشه أو حتى
بغيرته من قُدْرته الجديدة الخارقة !

ولكنَّ لسوءِ حظِّه لم يكنْ له صديقٌ قريب . كلُّ رُفقائه في
المدرسة ، ولا يستطيعُ حملَ رسومِ المحرَّمةِ هذه إلى هناك ،
وأبواه يُوصيانه دائماً بالألَّا يثقَ بأحدٍ ، وألا يتكلَّم كثيراً ، فالعالمُ
كلُّه جواسيسُ وأشرارُ !

وأحسَّ بالرغبة في الصُّراخ بدون هدفٍ للتَّنَفِيسِ عن مشاعر
ابتهاجه المكبوتة، ولكنه اكتفى بالصُّعُودِ فوق سريره والقفزِ
عليه بكلِّ قواه حتى خشي أن يشتكي سكانُ الشُّقَّةِ السُّفلى .

ثم ذهبَ إلى النافذة ففتحها على مضراعيها، ونظر إلى
المدينة حوله وهي غارقةٌ في الضبابِ والثلج، وصور الموجهِ
الأعظم العملاقة تنظرُ إليه من كلِّ جانبٍ وجدار من جُدُرَانِ
المدينة .

ونظر إلى أسفل فرأى حركة غير عادية . كانت سيارات
الشُّرطة السوداء تنتشرُ بين جميع عماراتِ الحي، وعددٌ هائلٌ من
رجال الأمن ينتشرون كالنملِ يطرقون الأبواب، ويدخلون دونَ
استئذان .

وعرفَ بالضبطِ عمَّ يَبْحَثُونَ . وأحسَّ بالخوفِ . ولكنَّ
دماغه كان يعملُ بسرعةٍ تجاوزت خوفه .

وخطرَ بباله فكرةٌ، فأخذ المجلدَ ووضعَ الرسومَ بداخله،
وفتح بابَ غرفته وأطلَّ، فرأى أبوابَ غرفِ الشُّقَّةِ تُقفلُ وتُرجُّ،

وقد سرى رُعبٌ شديدٌ بين سكانها . ورأته جارةٌ فقالت له :

- ادْخُلْ ، وأقفلْ بابك ! إنَّهم قَادِمُونَ !

ودخلت هي عُرفتها ، وأزجت الباب . فتسلَّل هو خارجًا على بنانٍ قَدَمَيْهِ . ونظرَ حَوَالَيْهِ ، وقصدَ مَدْخَلَ الشُّقَةِ حيثُ توجَدُ طاوِلَةٌ صغيرةٌ وراءَ البابِ عليها جهازٌ هاتفٍ فوق دُفترِ المشتركين ، فرفعَ الجهازَ ، وأخذ الدُفترَ ، ووضعَ مكانه المجلَّدَ ، وعاد بالدُفترِ إلى عُرفته ، فوضعه على المائدة .

وتناولَ قِمَطرَ كُتُبِهِ ، فأخرجَ كلَّ ما بداخله من دُفاتِرَ وأقلامٍ ، ونشرها فوق المائدةِ وقعدَ يكتبُ متصنِّعًا الاستغراقَ في عمله .

وترامى إلى سَمْعِهِ وَقْعُ أَقْدَامِ أَحْذِيَةِ رَجَالِ التَّفْتِيشِ الْأَشْدَّاءِ بِمَسَامِيرِهَا الْحَادَّةِ لِلوَقَايَةِ مِنَ الزَّلَلِ عَلَى الْجَلِيدِ ، ثُمَّ أَصْوَاتُهُمْ وَهُمْ يَدْفَعُونَ بَابَ الشُّقَةِ ، ويدخلون ، ثُمَّ طَرَقَاتُهُم الْعَنِيفَةُ عَلَى أَبْوَابِ الْغُرَفِ وَبُرُوزِ رُؤُوسِ السَّكَّانِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَوَّلُونَ أَثْنَاءَ حَمَلَاتِ التَّفْتِيشِ الْمُتَعاقِبَةِ إِلَى فِرَاقٍ بَشْرِيَةٍ كَبِيرَةٍ ، بدونِ كَرَامَةٍ وَلَا شَهَامَةٍ وَلَا احْتِرَامٍ لِلذَّاتِ ! وَكُلُّ هَمِّهِمُ النِّجَاةُ بِجُلُودِهِمْ وَلَوْ

على حسابِ جُلُودِ الآخرين . . .

ووقعت ركلةٌ عنيفةٌ على باب إهاب فانفتحَ وحده . كان قد تركه مفتوحًا عمدًا حتى يُوهَمَ المفتشون أنه لا يُخفي شيئًا .

ونظرَ إليه المفتشُ الملتحي المَلْفُوفُ في الفِراءِ والجلدِ كبرميلٍ حيٍّ ، وسأل :

- هل أنت وحدك؟

فوقف إهابٌ يرتعشُ أمامه :

- نعم .

- أين أبواك؟

- ذهبًا لزيارة جدتي .

- ولماذا لم تذهب أنت ؟

- عندي امتحان . وعليّ أن أراجع دروسي .

وحرّك المفتشُ المكسورُ رأسه ، ودخل ينقبُ بين أثاث الغرفة ويقلبها قطعةً قطعةً ، ويفتحُ كلَّ بابٍ ، وينظرُ تحت الأسيرة وخلف الأبوابِ ، والنوافذِ بطريقة الكلبِ الباحثِ المدربِ .

ولما لم يعثرُ على شيء ، نظرَ إلى إهاب وقال :
- عُدْ إلى دُرُوسِكَ .

ورفع قبضته في الهواء وهتف :

- عاشَ الموجَّه الأعظم . . !

فاضطَّرَّ إهاب إلى محاكاته .

وجلسَ ينتظرُ في جَزَعٍ حتى خَرَجَ آخرُ جُنْدِيٍّ ، وأُقْفِلَ
البابُ فتنفَّسَ الصُّعَدَاءُ ، وخرج من غرفته متسللاً إلى مدخلِ
الدَّارِ ، فنظر إلى المجلِّدِ ، فإذا هو ما يزالُ تحتَ جهازِ الهاتفِ .

واقترَبَ من البابِ ، ووضعَ أذنه عليها ، فترامى إليه وقعُ
الأقدامِ الحديدية على السَّلامِ وهي تبتَّعدُ ، فرفعَ الهاتفَ ، وأخذ
المجلِّدَ ، وتسَلَّلَ راجعاً إلى غُرْفَتِهِ .

وعاد أبواه متأخرين ذلك المساء، فوجداه نائماً على وجهه فوق دَفْتَرِ الرسوم التي كان يلونها، وصدره على السرير، وركبته على الأرض، وقد انتشرت من حوله الرسوم التي انتهى من تلوينها.

وانحنّت أمه فوراً لتجمّع الأوراق دون أن تنظر إليها لتُخْلِ له الفراش. ولكنّ أباه لاحظَ الرسوم فأخذها من يد زوجته، وراح ينظرُ إليها باندِهَاشٍ كبير. . .

قال لزوجته منبّها:

- انظري . . .

فنظرت إلى الرسوم الملونة، وفتحت فمها استغراباً واندِهَاشاً. ولم يلبث استغرابها أن تحوّل إلى خوف، فوضعت يدها على صدرها وشهقت قائلة:

- وييلي! إنها رسومٌ مُحَرَّمَة!

- ششش!

ووضع يدهُ على فمِها، ونظر إلى الباب، وهمست هي في أذنه:

- من أين جاء بهذه الرسوم؟

ونظر الأب إلى السرير فرأى المجلد، وأسرع إلى التقاطه، ووقف يتصفّحه وهي تنظر معه.

ثم وضعه على مائدة الطعام وأشعلَ النورَ الكبير، وجلس يتصفّح أوراقه ورقةً ورقةً بالتذاذِ كبير. إنه لم يسبق له أن رأى مثل هذه الرسوم الرائعة التي تُدخلُ السرورَ والابتهاجَ على النفس...

وحين انتهى أقفلَ المجلدَ، ونظرَ إلى زوجته وقال هامساً:

- إنه بدون شكَّ المجلدُ المحرّمُ للرّسامِ المتمرّدِ بُرّهان بُوريش.

- يا إلهي! ومن أين حصلَ عليه إهاب؟

- لا بدَّ أنه لقيه حينَ سَقَطَ من بُوريش أثناء مُطاردة رجال الأمنِ له، وجاءَ به إلى الدار.

ثم تناول الأوراق الشفافة والكراس الملون، وأنعم فيهما
النظر، والتفت يتأمل طفله النائم على ركبتيه .

وذهبت وردة إليه، فخلعت حذاءه، وهمت برفعه إلى
سريره، فاستيقظ مذعورًا، ونظر إليها ثم إلى أبيه وراح يسأل :

- أين رؤومي ؟ أين المجلد ؟

ووضعت أمه يدها على فيه :

- ششش ! من أين جئت بهذا الكتاب ؟

وانضم إليهما أبوه .

ووقف إهابٌ يمسحُ عينيه وينظر إليهما في صمتٍ، فحركته
أمه من ذراعِهِ في إلحاحٍ مكبوت :

- من أين جئت بهذا المجلد ؟ تكلم .

وتدخل الأب والمجلد في يده :

- تكلم يا إهاب . لا تخف .

فنطق إهابٌ بصوتٍ نائمٍ محرج :

- أعطانيه رجلٌ كان يُطارِدُهُ رجالُ الأمنِ بالخَيْلِ والسياراتِ
قَرِيبًا من مَدْرَسَتنا، وقال لي: «خُذْهُ لَأُيَكِّقَ وَقْلَ لَهْ يَأْخُذْهُ إِلَى
بِلَادِ الشَّمْسِ» .

وَنَظَرْتُ وَرَدَّةً إِلَى زَوْجِهَا فِي ارْتِيَابٍ وَهَمْسٍ :

- هَلْ تَعْرِفُهُ؟

- أَبَدًا . . .

- وَلِمَاذَا أُعْطِيَ إِهَابًا الْمَجْلَدَ وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَعْطِيكَ إِيَّاهُ؟

- لَا أَذْرِي . لَعَلَّهَا مَغَامَرَةٌ رَجُلٍ يَأْتِي تَوَسُّمَ الْخَيْرِ فِي طِفْلِ

صَغِيرٍ .

فَتَنَاولْتُ الْمَجْلَدَ مِنْ يَدِهِ وَقَالْتُ فِي عَزْمٍ :

- تَعَالَ الْآنَ نَسَلِّمُهُ إِلَى رِجَالِ الْأَمْنِ .

وَحِينَ سَمِعَ إِهَابٌ ذَلِكَ طَارَ نَوْمُهُ ، وَاتَّسَعَتْ عَيْنَاهُ مِنْ

الْجَزَعِ ، وَأَمْسَكَ بِالْمَجْلَدِ مِنْ يَدِ أُمِّهِ وَقَالَ مُسْتَعْطَفًا :

- لَا، يَا أُمِّي ، لَا، أَرْجُوكَ !

- شَشْشْ ! سَيَسْمَعُكَ الْجِيرَانُ ، وَيَشْكُونَنَا لِرِجَالِ التَّفْتِيشِ .

فردَّ إهابٌ :

- لقد جاء رجالُ التفتيشِ ولمْ يعثُرُوا عليه .

فَشَهَقَتْ وَرْدَةٌ :

- ماذا قُلْتَ ؟

واقترَبَ منه أبوه :

- جاء رجالُ التفتيشِ ؟ !

- نعم .

- ودخلوا غُرْفَتَنَا ؟

- وفتَّشوها تفتيشًا دقيقًا .

- ولمْ يعثروا على المجلد ؟

فحرَّكَ إهابٌ رأسَه بالنَّفْيِ :

- كلا .

- أينَ أخفَيْتَه ؟

- أخفَيْتُهُ .

- أين ؟

وكررت وردة السؤال :

- أجب أباك ! أين أخفيته ؟

- تحت الهاتف .

وفتحت فمها للمفاجأة :

- تحت الهاتف ؟ ولم يعثروا عليه ؟

فحرك رأسه نافيًا :

- لم يعثروا عليه .

فصاحت بصوت مكتوم :

- يا للمُغفل ! كنت ستوقعنا في مصيبة !

- ولكنهم لم يجدوه ، وهذا هو المهم .

وتدخل أبوه بهدوء :

- وكيف خطر لك أن تُخبئه هناك ؟

- قرأت في كتاب أن أحسن الأماكن لإخفاء الأشياء هي

البارزة . لا أحد يبحث فيها .

فحرّك أبوه رأسه في شعورٍ مختلِطٍ من الحيرة والإعجاب، ولم يزد على أن قال:

- صدقت، ولكن... .

وتدخّلت أمّه بحدّة مكتومة:

- ولكنّهم سيعودون! وسيعودون حتّى يعثروا عليه. فلا بدّ من تسليمه، أو التخلّص منه على الأقل.

ونظر إهاب إلى والده متوسّلاً، فأمسك هذا بالمجلّد، وانحنى فطوّق كتفي ابنه بذراعه وقال:

- الرجل الذي أعطاك هذا الكتاب، هل هو الرجل نفسه الذي رأيناه في التلفزيون بالأمس؟

وتردّد إهاب ونظر إلى أمّه الغاضبة الخائفة ثمّ قال:

- نعم.

فقال أبوه شارحاً:

- إذن، أنت تعرف أنّ وجوده خطرٌ كبيرٌ على حياتنا. وكلّما تأخرنا بتسليمه إلى رجال الأمن زاد الخطر.

فسأل إهابٌ ببراءة :

- ولكن لماذا؟ ما الخطرُ من كتابٍ جميلٍ كهذا، كلُّه
رسومٌ جميلةٌ لا تؤذي أحدًا، بل هي على العكس، تُسرُّ
الناظرين؟ ثم إنَّ الرجلَ حمَّلكَ أمانته إلى بلادِ الشمسِ .
فهل ستخونه؟

فتدخلت أمُّه :

- ششش ! ألم أقل لك مرارًا ألا تسأل مثل هذه الأسئلةِ
السخيفة؟! القانونُ هو القانونُ، وعلينا أن نطبِّقه ونطيعه دونَ
أن نسال . «الموجَّه الأعظم» أعرف . . .

وبكى إهابٌ من القهرِ، وضمَّ المجلدَ إلى صدره مرددًا :

- أرجوكم لا تعطوهم إيَّاه ! إنهم سيحرقونه . . .

فانحنى عليه أبوه متأثرًا بدموعه، وقال :

- اسمع، دعني أفكر هذه الليلة . لن نُسلمَهُم المجلدَ
اليومَ . وغدا نناقشُ الموضوعَ، نم الآن .

فقال الطفلُ غيرَ مقتنعٍ :

- هل تعدني ألا تعطيه أحداً دون علمي ؟

- أعدك .

- اخلّف !

وهنا تدخلت وردة لإيقافه عند حدّه :

- احرص يا وقح ! ألا تُصدّق أباك ؟

ونزعَتْ منه المجلّد، وقالت أَمْرَةً :

- قُمْ واغسِلْ أسنانك، والبسْ منامتك، وأوْ إلى فراشك !

ولم ينم يوسفُ النطاسيُّ إلا لحظاتٍ متقطعةً، باتَ يفكرُ في المجلّد الخطير والرسومِ الرائعةِ المحرمةِ وبُكاءِ ابنه إهابِ الذي لم يسبقُ أن تعلّقَ بشيءٍ في حياته تعلّقُهُ بهذا الكتابِ الحرامِ . . . ولكنّ الذي أقصّ مضجَعُهُ أكثرَ كانَ صورةَ الرّسامِ المتمرّدِ التي ظهرتْ على شاشةِ التلفزيون . فرغمَ نحافتهِ واغورارِ عينيه والسّقمِ البادي على وجهه كانَ يتسمُّ للكاميرا ابتسامةً تحدّ غامضةً . ظلّت تلكَ الصورةُ تُطارِدُ خياله وأحلامه المتقطعة . . .

وفي الصباح خرج الثلاثة معاً . ذهب إهاب إلى مدرسته ،
ووقف يوسف ووردة ينتظران الحافلة على المحطة .

كان البرد قارساً ، والحافلات تملأ مزدحمة بالعمال فلا تقف .
وفي وسط الشارع العريض كانت السيارات الحكومية
الضخمة تسير في طريقها الخاص والمحظور على بقية سيارات
النقل العام ، تحمل ركابها الممتازين من كبار رجال المؤجّه
الأعظم وأقاربهم وضباط جيشه وشرطته ومفتشيه والمحسوب
عليهم من خدم وحشم وحاشية . . .

وحين أوشك الاثنان على التجمّد لطول الوقوف وقفت لهما
حافلة فركبا واندسا في زحام الركاب .

وعند باب المستشفى المركزي افتقرت وزدة التي كانت تعمل
ممرضة هناك عن زوجها الدكتور يوسف النطاسي الذي كان
هو الآخر يعمل هناك موزعاً للأدوية .

وفي الطريقِ التَقَّتْ زميلَتَها (خيرة) الممرضة التي كانت
تكبرُها بأزیدَ من سنِّها، وكانتِ امرأةً طيبةً ومجربةً، وعاشت
قبلَ عهدِ الموجِّهِ الأعظمِ في عائلةٍ عريقة، ورأتِ أيامًا أجملَ،
ولكنَّها بذكائِها ومرونةِ طَبْعِها استطاعتُ أن تُسایِرَ العصرَ،
وتتكيفَ مع الأوضاعِ الجديدة.

وكانت تُحبُّ ورده، وتعطفُ عليها، وتتسرَّ على أخطائها.
وكانت ورده تُحبُّها، وتستمعُ بحديثِها عن ذكرياتها في أيامِ
ما صارَ يُدعى بعهدِ الفوضى والفسادِ.

كانت (خيرة) تُردِّدُ هامةً في أوقاتِ اختلائيها لفنجانِ
شاي:

- تلكَ كانتِ الأيامُ ! حقًّا كانت تُسودُّها بعضُ الفوضى،
ولكنَّها كانتِ فوضى الحُرِّيَّةِ وتعدُّ الاختيارِ في كلِّ شيءٍ...
وكانَ الفسادُ ولكنَّهُ مُبطَّنٌ بالرحمةِ والتسامحِ...
وتنهَّدُ في حَسرةٍ وتقولُ:

- أمَّا اليومَ فهُم يُريدُوننا آلاتِ تتحرَّكُ بأزرارٍ، وهُم يَعيشُون
حياةَ عصرِ الفوضى والفسادِ نفسِها وراءَ أسوارِ القبابِ المزخرفةِ

والقُصُورِ المترفَةِ الباقيةِ من العصرِ البائدِ . . .

وعند هذا تَقَلَّقَ وَرَدَّةٌ، وتقومُ من فوقِ كُرْسِيِّهَا، وتُطِلُّ من بابِ غُرْفَةِ الأدويةِ لتتأكَّدَ من أنَّ أَحَدًا لا يُنْصِتُ لِمَا تقولُ.

ومرَّ الدكتورُ يُوسُفُ النطاسي يَحْمِلُ سَلَّةً مَثْقَلَةً بالأدويةِ وغيرها من حاجاتِ قسمِ الجراحةِ. وَوَقَفَتْ لَهُ (خَيْرَةٌ) فحَيْثُ بهِ حرارةٌ وهي تتسلمُ منه الموادَّ، وتوقَّعُ له التوصيلَ.

وهمست في أذنهِ مشيرةً إلى غُرْفَةِ العملياتِ الكبرى :

- كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ بِقِنَاعٍ عَلَى وَجْهِكَ وَمِبْضَعٍ فِي يَدِكَ، وَأَنْتَ تَعْلَمُهُمْ كَيْفَ يَكُونُ فَنُ الْجِرَاحَةِ، لَا أَنْ تَوَزَّعَ الزَّجَاجُ وَالْقَطَنُ كَأَيِّ مُمَرِّضٍ مُتَقَاعِدٍ . . .

فابتسمَ لها، وقال مُمْتَنًّا :

- أَنْتِ سَيِّدَةٌ عَزِيزَةٌ يَا مَامَا «خَيْرَةٌ» . . . فَلَا تُكْرِّرِي ذَلِكَ حَتَّى لَا يَسْمَعُوكَ وَيَنْقُلُونِي إِلَى قِسْمِ الْقِيَامَةِ !

وَحَمَلَ سَلَّتَهُ وَرَاحَ . لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ أَنَّهَ زَوْجُ وَرَدَّةَ؛ لِأَنَّهَا اتَّفَقَا عَلَى الْأَلَّا يُخْبِرَا أَحَدًا بِذَلِكَ إِمْعَانًا فِي الْحَيْطَةِ وَالْحَذَرِ.

وحينَ انصرفَ التفتتُ إلى وردةَ وأشارت إليه وقالت :

- خُذِي هذا الشابَّ مثلاً، إنه الدكتورُ يوسفُ النطاسيُّ .
أبوهُ وجدُّه كانا من أَلَمَعَ أطبَّاءِ عصرِهِمَا، مهنةُ الطبِّ تسري
في عُرُوقِ عَائِلَتِهِ مُنْذُ الْقِدَمِ . وقد تخرَّجَ هوَ في كَلِيَّةِ الطبِّ
بعلاماتِ الامتيازِ، وكانَ أولَ صَفٍّ، وتسَلَّمَ شهادتهُ من يدِ
وزيرِ التعليمِ نفسه .

وتنهَّدت في حَسرةٍ :

- وماذا يفعلُ اليومَ ؟ يوزَّعُ الأدويةَ كمرَّضةٍ فاشِلةٍ عَجُوزِ .
وسألتُ وردةُ :

- ولكنْ لماذا ؟ أليسَ هذا ضياعاً وتبذيراً ؟

- أقولُ لكِ لماذا إذا وَعَدْتَ ألا تُكرَّري ذلكَ لأحدِ .

ونَهَضْتُ من كُرْسِيهَا وأطلَّتُ من بابِ الحُجْرَةِ، واقتربتُ
من وَرْدَةٍ، وأخذتُ توشوشُ في أذِنِهَا :

- مديراً المستشفىَ يَحْقِدُ عليه .

- لماذا ؟

- لا لِشيءٍ فعلُهُ، ولكنْ لمجرّد أَنَّهُ هو... أَنه يَحْمِلُ اسمَ
النَّطاسي . أَفهمتِ الآن ؟

فحرّكتْ ورْدَةً رَأْسَهَا بِغَبَاءٍ :

- لا، آسفةٌ لم أَفهم .

فسحبتْ (خيرةً) الكرسيَّ منْ تحتيها لتقتربَ منها أَكثَرَ،
وهمستْ :

- إِنَّهُ يَعْرِفُ أَصْلَهُ وَتَفَوُّقَهُ الْوِراثِيَّ فِي عُلُومِ الطَّبِّ، وَيَخَافُ
أَنْ يَظْهَرَ وَيَتَفَوَّقَ عَلَيْهِ وَيَأْخُذَ مِنْهُ مَنْصِبَهُ .

وحرّكتْ ورْدَةً رَأْسَهَا فَاهمةً :

- آه ! إِنَّهُ الْحَسَدُ !

فأضافتْ خيرةً :

- والغيرةُ الموروثةُ !

- كيفَ ؟

- أَنْتِ لَا تَعْرِفِينَ شَيْئاً عَنْ كِبَارِ الْيَوْمِ، وَلَا عَنْ آبَائِهِمْ

وَأَصُولِهِمْ . أَتَعْرِفِينَ مَنْ كَانَ أَبُو مُدِيرِ هَذَا الْمُسْتَشْفَى ؟

ولم تنتظرِ الجوابَ، وأضافت :

- كان بُسْتَانِيًّا فِي حَدِيقَةِ وَالِدِ يُوسُفَ النَّطَاسِيّ ، وَهُوَ الَّذِي
شَجَّعَ الْبُسْتَانِيَّ عَلَى تَعْلِيمِ ابْنِهِ ، وَحَصَلَ لَهُ عَلَى مَنَحَةٍ لِكَلِّيَةِ
الطَّبِّ ، وَأَشْرَفَ عَلَى تَعْلِيمِهِ .

فَحَرَّكَتْ وَرْدَةٌ رَأْسَهَا مُسْتَغْرِبَةً :

- وَالْيَوْمَ يَفْعَلُ بَابْنَهُ هَذَا !

- وَأَكْثَرَ . . . إِنَّهُ جَمَدَهُ فِي عَمَلٍ لَا عِلَاقَةَ لَهُ بِمِهْنَةِ الطَّبِّ
حَتَّى يَنْسَى مَعْلُومَاتِهِ ، وَيُضْبِحَ أُمِّيًّا فِي مِهْنَتِهِ . . . فَهَمَّتِ الْآنَ ؟
وَلَمْ تُجِبْ وَرْدَةٌ ؛ فَقَدْ كَانَتْ غَارِقَةً فِي التَّأَمُّلِ . الْآنَ فَقَطْ
فَهَمَّتْ سَبَبَ حُزْنِ زَوْجِهَا الْعَمِيقِ وَأَنْطَوَائِهِ وَتَشَاؤُمِهِ . كَانَتْ
عَرَفَتْهُ طَالِبًا عَامِرًا بِالْحَيَوِيَّةِ وَالتَّفَاؤُلِ وَالْأَمَلِ ، وَلَكِنَّهُ بَعْدَ تَخْرُجِهِ
انْطَفَأَ تَذَرِيجِيًّا كَنَارٍ بِلَا وَقُودٍ .

وَانْتَظَرَتْ نِهَآةَ النَّهَارِ بِصَبْرِ نَافِدٍ . وَمَا كَادَتْ تَلْتَقِي زَوْجَهَا
عَلَى بَابِ الْمُسْتَشْفَى حَتَّى سَارَعَتْ إِلَى الْإِسْرَارِ إِلَيْهِ بِمَا سَمِعَتْهُ
عَنْ مُدِيرِ الْمُسْتَشْفَى مِنْ أَسْرَارٍ جَدِيدَةٍ . . .

وَجَاءَ دَوْرُهُ هُوَ لِيَسْتَغْرِقَ فِي التَّأَمُّلِ طَوَالَ الطَّرِيقِ الْمُزْدَحِمِ
الْبَارِدِ .

وفي يومٍ الأحد، جاءَ لزيارتهم (كاملُ النطاسيُّ)، أخو يوسفَ، وزوجته (سناء) وطفلتُهما الشَّقرَاءُ الجميلةُ (رندةُ).

وعلى البابِ قدَّمتْ رندةُ لابنِ عمِّها إهابَ هديةٍ ملفوفةً في ورقةٍ ملوَّنةٍ، وطلبتُ منه فَتَحَها. وحينَ فَتَحَها، وجدَ أنها بُرِّتْقالَةٌ كبيرةٌ، فكادَ يطيرُ فرحاً بها، وشكرَ رندةَ بحرارةٍ.

وسألتْ وَردةُ:

- كيفَ حصلْتُم على البُرِّتْقالِ؟ إنه فاكهةٌ نادرةٌ في بلدنا.

فقالَتْ سناءُ:

- قِصَّتُها طويلةٌ. وباختصارٍ وَصَلْتُ منه كَمِيَّةً محدودةً من بلادِ الشمسِ، واكترى كاملٌ رجلاً مُتقاعداً ليقِفَ في الصَّفِّ مدَّةَ ثمانِي سَاعَاتٍ ليحصلَ عليها.

- على واحدةٍ؟

- بالضبط.

فعلّق كامل :

- مُنْذُ قَتَلُوا الْفَلَاحِينَ وَأَعْطُوا أَرْضَهُمْ لِلْمُوظَّفِينَ وَالنَّاسُ
يَمُوتُونَ جُوعًا، والدولة تَسْوِلُ الطعامَ من الذين تَصِفُهُمْ
بالرجعيين والأُنْذَالِ !

فوضعتُ سناءً زوجتهَ يدها على فيه :
- اششش ! ألا تعرفُ أَنَّ للحيطانِ آذانًا !
فَتَوَجَّهْتُ ورْدَةً لإهابٍ وقالتُ :

- عليك أن تَقْتَسِمَ هديتكَ مع الجميع . فقد كادت تُكَلِّفُ
رَجُلًا حياته .

واعترافًا بجميلِ رندةَ عليه ، استأذَنَ إهابٌ والدَه في أن
يَفَرِّجَهَا على مجلِّدِ صُورِهِ .

وظَهَرَ الفَزَعُ على وجهِ وَرْدَةٍ ، ولكنَّ يوسفَ قال لها :
- لا تقلقي ! ليس معنا غريبٌ .

وَأَذِنَ لإهابٍ في إخراجِ المجلِّدِ المحرَّمِ ، فقفزَ هذا سعيدًا إلى
صندوقِ لُعبِهِ وأَخْرَجَهُ من قَعْرِهِ ، وقَعَدَ إلى جانبِ رندةَ على
سريره ، وأَخَذَ يَتَصَفَّحُهُ وَيُرِيهَا الصُّورَ .

وَدَخَلَتْ سِنَاءُ مَعَ وَرْدَةِ الْمَطْبَخِ ، وَجَلَسَ كَامِلٌ مَعَ أَخِيهِ
يُوسُفَ يَتَحَدَّثَانِ . وَحِينَ سَأَلَ كَامِلٌ أَخَاهُ عَنْ وَضْعِيَّتِهِ
الإِدَارِيَّةِ ، وَهَلِ اسْتَطَاعَ حَلَّ مُشْكَلَتِهِ مَعَ مَدِيرِ الْمُسْتَشْفَى
وَالْعَوْدَةَ إِلَى مُمَارَسَةِ الْجِرَاحَةِ ، حَكَى لَهُ يُوسُفُ مَا حَكَّتُهُ خَيْرُهُ
لِزَوْجَتِهِ عَنْ مُدِيرِ الْمُسْتَشْفَى .

فَنَظَرَ كَامِلٌ إِلَى أَخِيهِ وَقَالَ :

- إِذْنُ هَذَا هُوَ التَّفْسِيرُ . وَلَا شَكَّ أَنَّ مَدِيرَكَ وَرَاءَ تَجْمِيدِي أَنَا
الْآخِرِ رَغْمَ أَنِّي مُهَنْدِسٌ . فَالْمُوظَّفُونَ السَّامُونَ يَتَعَارَفُونَ
وَيَتَبَادَلُونَ الْمَصَالِحَ . أَنَا الْآخِرُ دَرَسْتُ هَنْدَسَةَ الْفَضَاءِ ،
وَوَجَدْتُ نَفْسِي فِي مَنْصِبٍ مُفْتَشٍّ لِلطَّرِيقَاتِ وَالْمَسَالِكِ الثَّانَوِيَّةِ .
وَقَاطَعَتْهُمَا رَنْدَةٌ بِالْمُجَلَّدِ بَيْنَ يَدَيْهَا تَسْأَلُ عَمَّهَا يُوسُفُ :

- مَا هَذِهِ يَا عَمُّ يُوسُفُ ؟

وَأَشَارَتْ بِإِصْبِعِهَا الصَّغِيرِ إِلَى صَفْحَةٍ بِهَا عِدَّةُ طُيُورٍ مُلَوَّنَةٍ .
فَحَمَلَهَا يُوسُفُ وَأَجْلَسَهَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَبَسَطَ الْمَجْلَدَ ، وَأَخَذَ
يُشْرَحُ لَهَا :

- هذه طيورٌ.

- وما هي؟ وماذا تفعلُ؟

- هي حيواناتٌ صغيرةٌ ذاتُ ريشٍ وجناحينِ، تطيرُ بهما وتُحلّقُ في الفضاءِ.

- وأين توجدُ؟

- في بلادِ الشمسِ.

- لماذا لا توجدُ عندنا؟

- لأنَّ الموجةَ الأعظمَ أمرَ بإبادةِها.

ولم تفهم رندةُ الكلمةَ، فشرح إهابٌ:

- بقتلِها وإفنائِها...

- ولكن لماذا؟

- قال: إنها تحمِلُ الأوبئةَ.

- الأوبئةُ؟

فشرح إهابٌ:

- الأمراض المُعدية التي تَتَقَلُّ من واحدٍ لآخر، وتَقْتُلُ الناسَ .

وتوقَّف ، ثمَّ عادَ يُعلِّقُ :

- ولكنَّ الحقيقةَ غيرُ ذلك .

فنظرَ إليه أبوه مُستَغْرِبًا :

- ماذا تعني ؟

- قال لي أحدُ أوصحابي في المدرسة : إِنَّ سَبَبَ إغْدَامِ الطيورِ هو أَنَّها تَطِيرُ وتُحَلِّقُ في الفضاءِ ، وتَجْعَلُ الناسَ ينظرونَ إليها ويَحْلُمُونَ ، وَيَتَمَنَّونَ لو كانت لهم هم أيضا أَجْنَحَةٌ يُحَلِقُونَ بها في الفضاءِ . . . ثم إنها تذكِّرهم بِقُدْرَةِ اللهِ ، والمسؤولون لا يؤمنونَ بالله !

وسَمِعْتُهُ أُمُّهُ من المَطْبَخِ ، فخرجت مُسرَّعةً والسَّكِينُ في يديها ، وصاحت فيه بِصَوْتٍ مَكْبُوتٍ :

- اخرسْ ، قُطِعَ لِسَانُكَ !

ثم فتحت بابَ الغرفةِ وأطلتُ منه لِتَرى هل كانَ أحدٌ من الجيرانِ الفضوليين يُنصِتُ إلى الحديثِ . وتوجَّهتُ إلى زوجها :

- اَسْمَعُ ! هذا الولدُ سوفَ يَتَسَبَّبُ لنا في مُصِيبَةٍ !

وَرَأَتْ المجلدَ بين يديه على رُكْبَتَيِ الطِفْلَةِ ، فقالت :

- وهذا الكتابُ قُنْبَلَةٌ زمنيةٌ سَتَنْفَجِرُ فينا بينَ ساعةٍ وأخرى . . . يكفي أن يَحْيُوا مرةً أخرى للتفتيش ليقَعَ في أيديهم وتكون نهايتُنا .

وانضمتُ إليهم سناءً ، ووقفتُ تُنصِتُ إلى قصةِ المجلدِ التي كانتُ وردةٌ تحكيها لِكَامِلٍ . وحينَ انتهتُ قالتُ وردةٌ لِزَوْجِها :

- لا أريدُ هذا المجلدَ في بَيْتِي ! إذا لم تَتَخَلَّصْ منه أنتَ ، فسأفعلُ أنا ، ولا يهْمُنِي إذا كان عَبَقْرِيًّا أو أيَّ شيءٍ آخر . . .

والتفتتُ إلى إهابِ الذي كانتُ عَيْنَاهُ قد بدأتَا تَدْمَعَانِ :

- وأنتَ ، سَتَسْكُتُ أو سَأَعْرِفُ كَيْفَ أُسْكِثُكَ !

وعادتُ إلى المطبخِ ساخِطَةً غاضِبَةً ، وَتَبِعَتْهَا سناءُ تُهَوِّنُ عليها .

وبعدَ الغداءِ جلسَ الرجلانِ يَلْعَبَانِ الشطرنجَ ، وَكِلَاهُمَا مُسْتَغْرِقٌ في أَفكارِهِ الخاصَّةِ .

وجلستِ المرأتانِ والطفلانِ أمامَ التلفزيونِ لِلتَّفَرُّجِ على
مَهْرَجَانِ رياضيٍّ تَخَلَّلَهُ مقاطِعٌ منْ خُطَبِ المَوْجِّهِ الأعْظَمِ،
وسُرْعَانِ ما فَقَدُوا الاهتمامَ بهِ، وانصرفتِ السيدتانِ إلى نَسِجِ
الصوفِ والحديثِ، والطفلانِ إلى مُجَلِّدِ الرسومِ.

وأخرجَ إهابٌ رسومَهُ التي نقلها عن المجلدِ، فرأَتْها سناءُ
التي كانتْ مُعَلِّمَةً بإحدى المَدَارِسِ، فتعرَّفتْ حالاً المَوْهَبَةَ
الخامَةَ الكامِنَةَ وَراءَهَا. ونادتْ إهاباً:

- تعالِ يا إهابُ. هل أنتَ الذي رَسَمْتَ هذه؟

- لا، نَقَلْتُها منَ الكِتابِ.

- كيفَ نَقَلْتُها؟ بالتَّبَعِ على الورقِ الشَّفَافِ أم بالنَّظَرِ إليها
وَنَسَخِها؟

- بَعْضُها بالتَّبَعِ والبَعْضُ بالنَّظَرِ.

وتأملتِ الرسومَ المنسوخةَ بالنَّظَرِ وفَحَصَتْها بعينِ خَبِيرَةٍ،
وقالتْ لأمِّها:

- وردةُ، إِنَّ في بَيْتِكَ مَوْهَبَةً فَنِيَّةً تُوشِكُ على التَّفَتُّحِ.

فَعَمَزَتْها وَرْدَةً، وصرفتِ الطِّفْلَيْنِ، ثمَّ قالتْ:

- لا تُقُولِي ذَلِكَ يَا سَتَاءُ ! مَا الْفَائِدَةُ مِنْ هَذِهِ الْمَوَاهِبِ الَّتِي لَا تَجْلِبُ إِلَّا الْفَقْرَ وَالشَّقَاءَ !؟ لَا أُرِيدُ تَشْجِيعَهُ عَلَى السَّيْرِ فِي نَفْسِ طَرِيقِ الرِّسَامِ الْمُتَمَرِّدِ صَاحِبِ الْمُجْلَدِ الْمُحَرَّمِ ، بَلْ أُرِيدُ أَنْ يَنْتَهِيَ هَذَا . أَرْجُوكِ ! فَلَا قُدْرَةَ لِي عَلَى حَمْلِ هَمٍّ جَدِيدٍ . . .

وَنَظَرَ كَامِلٌ إِلَى أَخِيهِ يَوْسُفَ وَغَمَزَ بَعَيْنَهُ وَوَقَفَ :

- مِنْ مَنُكُمُ يَرِيدُ شَايَا ؟ سَأَعِدُّ إِبْرِيْقًا عَلَى مِزَاجِي .

وَذَهَبَ إِلَى الْمَطْبَخِ ، وَتَبِعَهُ يَوْسُفُ ، وَوَقَفَ الْاِثْنَانِ يُعَدَّانِ أَوَانِي الشَّايِ وَيَتَحَدَّثَانِ بِهَمْسٍ .

قَالَ كَامِلٌ :

- يَوْسُفُ ، اسْمَعْ مَا سَأَقُولُهُ لَكَ جَيِّدًا . إِنَّكَ تَمْلِكُ كِنْزًا نَفِيسًا دُونَ أَنْ تَذَرِي . . .

- مَاذَا تَغْنِي ؟

- أَغْنِي الْمُجْلَدَ الْمُحَرَّمِ . لَقَدْ سَمِعْتُ فِي إِذَاعَاتِ بِلَادِ الشَّمْسِ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ التَّضَرُّيْحَاتِ وَالْأَخْبَارِ الْمُبَالِغِ فِيهَا عَنْ قِيَمَتِهِ الْفَنِّيَّةِ ، لِأَغْرَاضٍ سِيَاسِيَّةٍ ، طَبَعًا . . . وَلَكِنْ مَا يَهْمُنَا نَحْنُ هُوَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ نَجْنِيَهُ مِنْ وَرَائِهِ .

فحرّك يوسفُ رأسه غيرَ فاهِمٍ :

- لا أدري كيفَ يُمكنُنَا نحنُ الاستفادةُ من الكتابِ ونحنُ
في بلادِ الصَّقيعِ ! وحيَازةُ الكتابِ هنا تُعتبرُ جَرِمةً عَظْمَى ،
وتأمراً على أمنِ الدَّولةِ .

- خَفِّضْ صَوْتَكَ ! أنا أعِني نَقْلَ الكتابِ إلى هُناكَ ، إلى بلادِ
الشمسِ

- من سَيَنْقُلُه لَكَ إلى هُناكَ؟ وهلَ تستطيعُ وضعَ ثِقَتِكَ في
أحدِ هذه الأيامِ ؟ ولولا أَنَّكَ أخِي ما كُنَّا نتكلَّمُ هكذا مُطلقاً .

- لا أعِني تسليمَ المجلدِ لأحدٍ . أعِني أخذهُ إلى بلادِ
الشمسِ بأنفُسِنَا

- وكيفَ والأسوارُ مَضْرُوبَةٌ عَلَيْنَا في عُلوِّ ناطِحَاتِ
السَّحَابِ؟ وفوقها مِثْلُهَا من الأسلاكِ الشائِكَةِ المَكْهَرِبَةِ ، وتَحْتَهَا
حُقُولٌ واسعةٌ من الأَلْغَامِ والمتفجِّراتِ وآلاتِ التَّجَسُّسِ
الإلِكْترُونِيَّةِ ؟

- لا يُزْعِجُكَ ذَلِكَ ! إذا توافرتِ الإرادةُ وَجَدَتِ الوَسِيلَةَ .
وتوقَّفْ قليلاً وسألَ :

- هل تنوي البقاء في هذا البلد الذي سلبك كل شيء ،
وألقى بك في دَرْبٍ مَسْدُودٍ؟ لقد مررت عليك في وظيفتك
التافهة سَتَّان . وما هي إلا ستان أخريان وتصبح أميًّا في
ميدانِ الطَّبِّ ! وعِنْدِيذٍ يفعل بك مديرُ مُسْتَشْفَاكَ ما يشاء .
فهل أنت مُسْتَعِدٌّ لذلك اليوم ؟

ووقع السؤال على رأس يوسف كالْمِطْرَقَةِ ، وكأنها لم يكن
يتوقع ذلك المصير ، ففتح فمه عاجزاً عن الإجابة . . .
واستأنف كامل :

- أنا الآخر وصلتُ إلى نهاية الدَرْبِ المَسْدُودِ ، ولكني لا
أنوي أن أَسْتَسْلِمَ دونَ قِتَالٍ . . . فهل تُشَارِكُنِي الرَّأْيَ ؟
وَلَمْ يُجِبْ يوسفُ ، فأعادَ كاملُ السؤالَ :
- هل تسمعُني ؟

وخرجَ يوسفُ من شُرُودِهِ وقالَ :
- أسمعُكَ ، أسمعُكَ . . فقط لا أدري كيف تنوي الخروجَ
إلى . . .

ولم ينطقَ بالكلمة المحرمة ، بِلَادِ الشَّمْسِ !

- دع تَذْبِيرَ ذَلِكَ لي . . . أنا مهندسٌ وذلك عَمَلِي . فإذا اتفقنا فما عليك إلا أن تُقْنِعَ زوجَتَكَ وتُهيِّئَهَا لِلْفِكْرَةِ ، من أَجْلِكُمَا أنتما أولاً . وفوق كُلِّ شيءٍ من أَجْلِ وَلَدِكُمَا إهابٍ ، هذه الموهبةُ الْمُتَفَتِّحَةُ التي سَيَقْضِي عليها الصقيعُ إذا بقيتَ هنا في مَمْلَكَةِ مارليست ! .

وسكتَ لِيَلْتَقِطَ أنفاسَهُ وَيُرَاقِبَ رَدَّ فِعْلٍ كَلَامِهِ في وَجْهِ أَخِيهِ . ثم قال :

- إذا وَاَفَقْتَ فِي الصَّيْفِ الْقَادِمِ نَجْتَازُ الْحُدُودِ بلا صُعُوبَةٍ . والتفتَ فرأى في رُكْنٍ من أركانِ المَطْبَخِ صُنْدُوقًا به بعضُ الأدواتِ الطِّبِّيَّةِ المُسْتَعْمَلَةِ ، فأشارَ إليها وقال :

- انْظُرْ إلى أَدَوَاتِ عَمَلِكَ وَبَحْثِكَ . هل تعتقدُ أَنَّكَ سَتَصِلُ إلى اكْتِشَافِ مَصْلِ السَّرْطَانِ بهذه الأدواتِ ؟
ثم سأله :

- وبِالْمُنَاسِبَةِ ، أينَ وصلتَ في بَحْثِكَ ؟
- لا يَتْرُكُ لي المَسْتَشْفَى وَقْتُـالِـلِـلْبَحْثِ ، وليسَ لي مجالٌ لِلتَّجَرُّبَةِ على المَرْضَى إِلَّا ما أُسْرِقُهُ خِلْسَةً أو يَتَقَضَّلُ عَلَيَّ به بعضُ الزملاءِ القُدَامَى على مَضْضٍ وخَوْفٍ .

- نفسُ ما حَدَثَ لِمْشْرُوعِي لِبِنَاءِ مَحَطَّةِ فَضَائِيَّةٍ مِنْ نَوْعٍ جَدِيدٍ. أُغْلِقْتُ عَلَيَّ جَمِيعَ الْأَبْوَابِ هُنَا. وَإِذَا أَرَدْتُ تَقْدِيمَ شَيْءٍ فَعَلَيَّْ أَنْ أَقْدِمَهُ عَنْ طَرِيقِ السَّلَامِ الْإِدَارِيِّ ! وَكَمْ مَشَارِيعَ اخْتَطَفَهَا الرُّؤَسَاءُ وَالْمُدْرَاءُ مِنْ دَرَجَاتِ السَّلَامِ الْإِدَارِيَّةِ، وَنَسَبُوهَا لِأَنْفُسِهِمْ ! وَلَا أَنْوِي أَنْ أَقْدِمَ فُرْصَةَ الْعُمْرِ هَدِيَّةً لِأَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّصُوصِ وَالنَّهَّائِينَ . . .

وَنَظَرَ مِنَ النَّافِذَةِ إِلَى الْخَارِجِ، وَأَضَافَ :

- تَصَوَّرْ أَنْ يَكُونَ لَكَ مُخْتَبَرُكَ وَمَعَكَ عِدَّةُ هَائِلٍ مِنَ الْمُسَاعِدِينَ الشَّبَابِ . . . فَرِيقٌ كَامِلٌ لِبِنَاءِ مَشْرُوعِكَ تَحْتَ قِيَادَتِكَ فِي أَقْرَبِ الْأَجَالِ، أَوْ لِإِتِمَامِ بَحْثِكَ هَذَا الَّذِي تَقُومُ بِهِ حَوْلَ السَّرْطَانِ. فَكَّرَ يَا يُوسُفُ . . . وَمَوَعِدُنَا الْأَحَدُ الْقَادِمُ فِي بَيْتِي عَلَى الْغَدَاءِ.

وَالْتَفَتَ إِلَيْهِ يُوسُفُ وَسَأَلَ :

- هَلْ تَعْرِفُ سَنَاءً عَنْ أَفْكَارِكَ هَذِهِ ؟

- أَجَلْ . وَهِيَ مُقْتَنَعَةٌ تَمَامًا بِضَرُورَةِ الْفِرَارِ مِنْ هَذَا الْمُعْتَقَلِ الْبَارِدِ الْمَلْعُونِ . . .

فحرَّكَ يوسُفُ رأسَه بحُزْنٍ وَقَالَ :

- وَلَكِنَّهَا بِلَادُنَا . وَهَلْ نَهْرُبُ مِنْ بِلَادِنَا؟ أَنَا أَحِبُّ بِلَادِي ،
وَأُرِيدُ أَنْ أَعِيشَ فِيهَا أَنَا وَأَوْلَادِي وَحَفَدَتِي !

وَضَرَبَ كَفَّهُ الْيُسْرَى بِقَبْضَتِهِ الْيُمْنَى فِي حَيْرَةٍ وَأَلِمَ وَقَالَ :

- لَوْ كَانَتْ ظُرُوفُنَا ، فَقَطْ ، أَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ !

فَوَضَعَ كَامِلٌ يَدَهُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَقَالَ بِاقْتِنَاعٍ كَبِيرٍ :

- لَنْ تَهْرُبَ مِنْ بِلَدِكَ . . .

فَنَظَرَ إِلَيْهِ أَخُوهُ بِاسْتِغْرَابٍ ، فَأَضَافَ :

- سَتَهْرُبُ فَقَطْ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا مِنْ أَرْضِ
الْوَطَنِ مُعْتَقَلًا كَبِيرًا لَا يُحْتَمَلُ الْعِيشُ فِيهِ . . . وَسَتَعُودُ إِلَيْهِ
قَرِيبًا حِينَ يَتَحَرَّرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . . .

فَنَظَرَ إِلَيْهِ أَخُوهُ يوسُفُ غَيْرَ فَاهِمٍ ، وَسَأَلَ :

- وَكَيْفَ ؟

فَأَجَابَ كَامِلٌ :

- سَتُخْرِجُ مِنْهُ بِجَسَدِكَ فَقَطْ ، وَسَتَعُودُ إِلَيْهِ بِأَفْكَارِكَ
وَعِلْمِكَ وَاكْتِشَافَاتِكَ فِي حَقْلِ عِلَاجِ السَّرَطَانِ ، بَعْدَ أَنْ نَذْهَبَ

إلى بلادِ الشمسِ ، وتُتاحَ لكَ فرصةُ إجراءِ بُحُوثِكَ في أَحَدِ
مُخْتَبَرَاتِهَا الْمُتَقَدِّمَةِ ؛ فَالْعِلْمُ لَا وَطْنَ لَهُ ، وَلَا تَقِفُ فِي وَجْهِهِ
حُدُودٌ وَلَا سُدُودٌ ، وَسَوْفَ يَسْتَفِيدُ أَبْنَاءُ وَطَنِنَا مِنْ بَحُوثِنَا ،
وَيَفْتَخِرُونَ بِنَا .

وانحنى عليه وهمسَ لَهُ :

- وَحِينَ يَكْتَشِفُ الْمَسْؤُولُونَ هُنَا سَبَبَ هُرُوبِنَا ، سَيُعَاقِبُونَ
الْمَسْؤُولِينَ عَنْهُ شَرَّ عِقَابٍ ، وَرَبِّمَا نَفَوْهُمْ إِلَى بِلَادِ الظَّلَامِ
الْبَارِدِ ، وَمَنْ يَدْرِي ؟ لَعَلَّهُمْ يَطْلُبُونَ مِنَّا الْعَوْدَةَ لِلتَّذْرِيسِ فِي
جَامِعَاتِنَا مُعَزِّزِينَ مُكْرَمِينَ ، بَعْدَ أَنْ يَعْتَرِفَ الْعَالَمُ بِفَضْلِنَا فِي
مِيزَانِ الْبَحْثِ الطَّبِيِّ وَالْفَضَائِيِّ .

وَتَوَقَّفَ لِحِظَةٍ ثُمَّ أَضَافَ :

- وَزِيَادَةً عَلَى هَذَا ، فِي بِلَادِ الشَّمْسِ سَيُمْكِنُنَا أَنْ نُصَلِّيَ وَأَنْ
نَعْبُدَ اللَّهَ نَحْنُ وَأَوْلَادُنَا عِلَاقِيَّةً فِي الْمَسَاجِدِ مَعَ النَّاسِ ، دُونَ
خَوْفٍ مِنْ أَنْ يَرَانَا أَحَدٌ ، أَوْ يُبْلِغَ عَنَّا الشَّرْطَةَ !

فَانْشَرَخَ صَدْرُ يَوْسُفَ ، وَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُهُ ، وَشَاعَ الْأَمَلُ
الْمُضِيُّ دَاخِلَ نَفْسِهِ كَشْرَابٍ دَافٍ لَذِيذٍ . . .

ولكنه عادَ إلى العُبُوس مرةً أخرى ، وقال لكاملٍ بترُدُّدٍ :

- لا أدري كيفَ أفاتِحُ وردةَ بهذا . ولا أعرفُ ما سيُكونُ ردُّ فعلِها . فهي امرأةٌ مُحافِظَةٌ ، ولمَ تُعرِفْ بلدًا غيرَ بلادِ الصَّقِيعِ .
فقاطعهُ كاملٌ :

- لا تَقْلُقْ من هذه الناحية . سوفَ أدعُ (سنا) تُفَاتِحُها في الموضوعِ بطريقةٍ غيرِ مُباشرةٍ ، وتُهيئُها لقبولِ الفكرةِ .
وعادًا بالشايِ إلى المائدةِ .

وحينَ همَّ كاملٌ وأسرَّتهُ بالذهابِ انفَرَدَ به يوسفُ ، وقالَ له :
- اسمعْ ، هلَ أستطيعُ أن أطلبَ منكَ خِدمةً ؟
- متى كنتَ تسألُ مثلَ هذا السؤالِ ؟
- هذه خِدمةٌ صَعْبَةٌ وخطيرةٌ نوعًا .
- بدونِ مَقدماتٍ ، ما هي ؟

- أن تأخذَ مَعَكَ المجلدَ إلى دارِكَ ، وتُخْفِيَه هُناكَ . فرِجالُ التفتيشِ لن يَبحثُوا عنه في منطِقتِكُم ، لأنَّه ضاعَ منهم في هذه الناحيةِ من المدينةِ . وقد جاؤوا مرةً ولا أستبِعدُ أن يَعودُوا .

- هَاتِهِ . أينَ هو؟

ونادى يوسفُ صغيرةً إهابًا :

- إهابُ .

- نعم ، يا أبى .

وهمسَ له :

- أينَ المجلدُ؟

- لماذا؟

- لا تسأل ، وهَاتِهِ حالاً .

وعادَ إهابُ بالمجلدِ ، ومدَّه لأبيه فأنحنى هذا يشرحُ له :

- سأعطيه لعمِّكَ ليُخبِّئه لنا عنده حتَّى يهدأَ البحثُ عنه .

فهمتَ؟ فهو في طرفِ المدينةِ الآخرِ ، وعندهُ سيارةٌ رسميةٌ لا يُفتشُّها المُفتشُّونَ .

فوافقَ الطفلُ على مَضِضٍ .

ومدَّ يوسفُ الكتابَ لأخيه كاملٍ قائلاً :

- حماك الله !

فأخذهُ كاملٌ وأدخله في حزامه خلفَ ظهره ، وَلَبِسَ مِغْطَفَهُ
الْفَرْوِيَّ الثَّقِيلَ وتهيأ للذهابِ . ولكنه تذكر شيئاً فعاد يقولُ
ليوسفَ :

- اسمعْ ، سنحتاجُ لنوعٍ مُعيَّن من قُمَاشِ النَّائِلُونِ المُشَمَّعِ
المُقَوَّى .

وأخرجَ من جيبيه قطعةً منه سلَّمَهَا لِيُوسُفَ قائلاً :

- اشترِ كُلَّ ما تستطيعُ الحُصُولَ عليه من هذا النوع . أنتَ
ووردةُ . ولا تُثِيرا اهتمامَ الباعَةِ بِشِراءِ كمِّياتٍ كبيرةٍ في دَفْعَةٍ
واحدةً .

وفتحَ يوسفُ بابَ الغرفةِ ، فابتعدتْ امرأةٌ جارةٌ كانتْ تقِفُ
وراءَهُ دُونَ سَبَبٍ واضحٍ ، وفزعَ يوسفُ لرؤيتها حتَّى كادَ يُقْفِلُ
البابَ ثانيةً . ولكنه سَيطَرَ على أعصابِهِ ، وابتسمَ لها قائلاً :

- مساؤُك سعيدٌ ، سيدتي .

فردَّتِ التحيَّةَ بانحناءٍ من رأسِها الأشعثِ ، ولم تبتسمْ أو تتكلَّمْ .
وودَّعَ بعضهم البعضَ على بابِ الشُّقَّةِ ، ودخلَ يوسفُ
وأسرَّتهُ ، وأسرعَ إهابٌ إلى نافذةِ الغرفةِ المُطلَّةِ على الشارعِ ليرى
عمَّهُ وأسْرَتَهُ يركبُونَ السيارةَ ، ويختفونَ في عَتَمَةِ المساءِ .

لَمْ يَجِدْ يَوْسُفُ كَبِيرَ عَنَاءٍ فِي إِقْنَاعِ زَوْجَتِهِ وَرَدَةً بِفِكْرَةِ الْهُرُوبِ
إِلَى بَلَدِ الشَّمْسِ .

حَكَى لَهَا عَنْ مَشْرُوعِهِ وَطَرِيقَتِهِ الْجَدِيدَةِ فِي الْبَحْثِ عَنْ
مَصْلٍ لِعِلَاجِ سِرْطَانِ الدَّمِ ، وَعَنْ قُرْبِ اكْتِشَافِهِ لِلْمَصْلِ ، وَعَنْ
الشُّهُرَةِ وَالْمَجْدِ وَالْمَالِ الَّذِي يُمَكِّنُهُ الْحَصُولُ عَلَيْهِ إِذَا هُوَ أَغْلَنَ
اِكْتِشَافُهُ فِي بَلَدِ الشَّمْسِ

وَتَخَيَّلَتْ وَرَدَةُ كُلَّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ تَحْصُلَ عَلَيْهِ وَرَاءَ نَجَاحِ
زَوْجِهَا فِي بَلَدِ الشَّمْسِ مِنْ مُتَعِ الْحَيَاةِ الَّتِي حُرِمَتْ مِنْهَا فِي بَلَدِ
الصَّقِيعِ .

تَخَيَّلَتْ نَفْسُهَا تَلْبَسُ الْفَسَاتِينَ الْأَنْيَقَةَ وَالْأَحْذِيَةَ الرَّفِيعَةَ
وَالْجَوَاهِرَ النَّفِيسَةَ ، وَتَرْكَبُ سَيَارَةً فَخْمَةً خَاصَّةً بِهَا وَفِي مِلْكِهَا ،
وَرَبَّمَا يَسُوقُهَا سَائِقٌ خَاصٌّ ، وَتَخَيَّلَتْ نَفْسُهَا جَالِسَةً فِي قَصْرِ
فَخْمٍ ، وَرَأَتْ نَفْسُهَا تَتَقَلَّبُ مِنْ طَائِرَةٍ إِلَى أُخْرَى ، وَمِنْ مَدِينَةٍ

عظيمة إلى عاصمةٍ أعظم . . .

ولكنّ الذي أدفأ نفسها من هذه الأحلام النهارية أكثر، هو تخيلُها بعيدةً عن هذه الغرفةِ الحقيمة، وهذه الحياةِ البائسةِ الخائفةِ، وعن وجهِ الموجِّهِ الأعظمِ الذي يُطلُّ عليها من كلّ مكانٍ من داخلِ عُرفَتِها الضيّقةِ، في الحافلةِ، وعلى جُدرانِ المدينةِ، ومن شاشةِ التلفزيونِ، ومن كلّ جريدةٍ ومجلّةٍ، وعلى كلّ حائطٍ بالمستشفى . . .

وجاءَ يومُ الأحدِ الموعودُ، وجاءَ كاملٌ ليأخذَهُم بالسيارةِ إلى دارِهِ، كما وعدَ بذلك إهاباً الذي لم يكنْ ركبَ قطُّ سيارةً فرديةً .

وحملوا معهم كلّ ما اشتروه من قُمَاشٍ .

وفي الدارِ جلسَ الجميعُ يشتغلون بَعْدَ الغداءِ، كان كاملٌ قد أعدَّ كلّ شيءٍ في اليومِ السابقِ . ففَصَّلَ قِطْعَ القُمَاشِ التي كان اشتراها هو وزوجتُه، ورسمَ حُدودَ الخياطةِ، فجلستِ الزوجتانِ تَخِيطانِ القُمَاشَ دونَ أنْ تعرِّفا ما تَفْعَلانِ . وكلّما سألتَا أجابَ كاملٌ :

- سَتْرِيَان . . .

وانغمس هو وأخوه يوسف في نسج شبكة مُستديرة على شكل بيت العنكبوت من حبال نايلون قوية .

وحين انتهت الزوجتان من خياطة القطعة الأولى من القماش أمسك بها الجميع من أطرافها ونشروها وسط الغرفة فإذا هي في شكل شطر من أشرطة بطيخة مُستطيلة .

وعلقها كامل على الحائط ، ونادى إهاباً :

- تعال ، يا إهاب . عندي لك شغل .

ووقف إهاب أمام عمه ينتظر أوامره بجذ واهتمام ، فقال كامل :

- هل تستطيع رسم وجه (الموجه الأعظم) على هذه الخزقة؟

وفوجئ الصغير بالسؤال ، ونظر إلى عمه وإلى القماش وقال :

- ولكنني لا أستطيع الوصول إليها ، فهي عالية .

- لا تشغل بالك بذلك . هل تستطيع رسم الوجه ؟

- بكل تأكيد . فقد رسمته مراراً في المدرسة ، ولكن ليس بهذا الحجم الكبير .

- إذن ما عليك إلا أن تُفكّر كثيراً . .

وطلب من أخيه يوسف أن يحمل معه طاولة الطعام من وسط الغرفة إلى جنب الحائط ، ورفع إهاباً إليها وناولهُ قطعة طباشير وقال :

- ابدأ بهذه . وبعد إتمامها تتبعها نحن بالطلاء الأسود .

وتناول إهاب قطعـة الطباشير وأخذ يرسم بسرعة ومهارة ، ورندة ابنة عمه الصغيرة تنظر إليه بإعجاب وافتتان .

ولم تمض بضـع دقائق حتى بدأت تبرز من تحت أنامله الصغيرة النحيلة ملامح الوجه الشهير بصلعته اللامعة وحاجبيه الكثين ولحيته المنتشرة على صدره المغطى بالنياشين والأوسمة .

وحين انتهى منها صفق له الجميع بإعجاب إلا أمه التي خافت أن يلفت ذلك نظر الجيران ، ولكن كاملاً أذاب خوفها بقوله :

- إِنَّنَا نَسْتَعِدُّ لِّلْأَحْتِفَالِ بِعِيدِ مِيلَادِ (المُوجَّه الأَعْظَم).
وينبغي أن يعرف الجميع ذلك.

وَعَمَزَ بِعَيْنِهِ وَابْتَسَمَ . ولم يَكُنْ قد بَقِيَ على عيدِ المِيلَادِ
الوَطَنِيِّ الكَبِيرِ إِلَّا أَشْبُوعَانِ ، فَانْكَبَّ الْجَمِيعُ على الْعَمَلِ لِإِتْمَامِ
الْمَشْرُوعِ الْغَامِضِ الْمُعَقَّدِ .

وفي غرفة عارية بأحد مُستشفيات الأمراض العقلية
والعصبية جلس بُرْهَانُ بُورِيش، الرّسّامُ المُتمرّدُ، على الأرض
الباردة بملايس مُبتلّة وهو يَرتَعِدُ من شدّة البرد، وقد زادَ
نَحَافَةً وَضُمُوراً.

وعلى رأسه كان يقفُ ضابطُ تحقيقٍ وفي يده عصا يَنكُثُ بها
ويسأله بصبرٍ نافذ:

- لآخر مرّة أسألك. أين خبأت المجلد؟ لمن أعطيته؟

وأغمض بُرْهَانُ الفنّانُ عينيه في إرهابٍ ونُعاسٍ شديدين،
وزمّ شفّتيه حتّى لا ينطق.

وتدخّل رجلٌ في ملايس المستشفى وعلى عينيه نظّارة ذهبية:

- أجب يا بُرْهَانُ! إنّ حالتك الصحيّة سيّئة للغاية. وما
عليك إلّا أن تقول لمن أعطيت الأمانة لتدخل غرفة دافئة،
وتُغيّر ملايسك، وتُشرب حساءً ساخناً، وتنام نومًا عميقًا حتّى
تستيقظَ وُحدَكَ...

ولمَّا لَمْ يُجِبْ أَشَارَ الضَّابِطُ إِلَى جَنْدِيَيْنِ :

- أَخْرَجُوهُ إِلَى السَّاحَةِ .

وَأَخْرَجَهُ الْجُنْدِيَانِ يَحْمِلَانِهِ مِنْ تَحْتِ إِبْطَيْهِ ، وَرِجْلَاهُ تَنْسَحِبَانِ
عَلَى الْأَرْضِ ، وَأَلْقِيَا بِهِ خَارِجَ الْغُرْفَةِ فِي سَاحَةِ عَارِيَةٍ ، أَرْضَهَا
مُغَطَّةَةٌ بِثَلَجٍ صَلْبٍ وَسِخٍ وَبَعْضِ أَكْوَامِ الْقِمَامَةِ .

وَفِي الْحَالِ تَجَمَّدَتْ مَلَابِسُهُ الْمُبْتَلَّةُ حَتَّى صَارَتْ كَالْوَحِ
الْقُضْدِيرِ . وَأَحْسَّ بِالْمِ حَادٌّ فِي رِئْتَيْهِ ، وَأَخَذَ يَهْدِي مِنَ الْحُمَّى
وَالصُّدَاعِ وَأَوْجَاعِ الْأَسْنَانِ وَتَجَمَّدَ الْأَطْرَافِ .

وَخَرَجَ الضَّابِطُ ، وَأَقْعَى إِلَى جَانِبِ رَأْسِهِ ، وَأَخَذَ يُصَيِّخُ
السَّمْعَ .

كَانَ بُرْهَانٌ يُرَدَّدُ بِكَلِمَاتٍ مُتَقَطَّعَةٍ :

- خُذْهُ يَا وَلَدِي . . . خُذْهُ إِلَى أَبِيكَ ، وَقُلْ لَهُ يَذْهَبُ بِهِ إِلَى
بِلَادِ الشَّمْسِ .

وَوَقَفَ الضَّابِطُ يَفْكُرُ قَلِيلًا ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى الطَّبِيبِ ، وَقَالَ :

- أَسَمِعْتَ مَا قَالَ ؟

- هَلْ فَهِمْتَ مِنْهُ شَيْئًا ؟

- إِنَّهُ أُعْطِيَ الْمَجْلَدَ لَطْفًا ، وَقَالَ لَهُ يَأْخُذْهُ إِلَى أَبِيهِ لِيُهَرِّبَهُ إِلَى
بِلَادِ الشَّمْسِ . هَذِهِ إِشَارَةٌ . وَرَغْمَ غُمُوضِهَا فَهِيَ تَسْتَحِقُّ
الاهْتِمَامَ .

وَدَخَلَ فَتَنَاوَلَ سَاعَةَ الْهَاتِفِ ، وَأَدَارَ رَقَمَ الْقِيَادَةِ :

- السَّيِّدُ الرَّئِيسُ .

وَبَادَرَهُ الرَّئِيسُ سَائِلًا :

- هَلْ اعْتَرَفَ الْمُعْتَقَلُ ؟

- لَيْسَ بِطَرِيقَةٍ مُبَاشِرَةٍ ؛ فَهُوَ عَنِيدٌ كَالْبَغْلِ ، وَلَكِنَّهُ أُعْطَانَا فِي
هَذَيَانِهِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ سَلَّمَ الْمَجْلَدَ لَطْفًا ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَخْذَهُ إِلَى
أَبِيهِ ، لِيَأْخُذَهُ لِبِلَادِ الشَّمْسِ .

- مَنْ الطِّفْلُ ؟

- لَمْ يَقُلْ . وَلَكِنَّا نَسْتَطِيعُ التَّحْقِيقَ مَعَ جَمِيعِ أَطْفَالِ الْمِنْطَقَةِ
حَتَّى نَعْتَرَّ عَلَى الَّذِي نُرِيدُهُ .

- وَوَضَعَ الرَّئِيسُ السَّاعَةَ ، وَأَعْطَى الْأَمْرَ لْجَمِيعِ وَحَدَاتِ
تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ بِتَفْتِيشِ مَنَازِلِ السَّكَّانِ ذَوِي الْأَطْفَالِ ،
وَاسْتِنْطَاقِهِمْ .

ولم تَمُصْ لَحْظَةً عَلَى صَدُورِ الْأَمْرِ حَتَّى كَانَ أَحَدُ الضَّبَاطِ
الَّذِينَ كَانُوا يَطَارِدُونَ بَرهَانَ بوريث يَطْرُقُ بَابَ يوسفَ . كَانَ قَدْ
تَذَكَّرَ أَنَّهُ رَأَى الْفِطْلَ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي مَرَّ مِنْهُ الرَّسَامُ الْمَتَمَرِّدُ .
وَحِينَ لَمْ يَجِدْهُ طَرَقَ جَمِيعَ غُرَفِ الشَّقَةِ وَأَخْرَجَ الْجِيرَانَ ، وَأَخَذَ
يُلْقِي عَلَيْهِمُ الْأَسْئَلَةَ وَالتَّهْدِيدَاتِ .

وَتَقَدَّمَتِ الْجَارَةُ وَهِيَ تَرْتَعِدُ مِنَ الْخَوْفِ ، وَرَفَعَتْ يَدَهَا
طَالِبَةً الْكَلَامَ وَالْأَمَانَ ، وَحِينَ أَذِنَ لَهَا الضَّابِطُ قَالَتْ :

- كَانَتْ تَدُورُ فِي هَذِهِ الْغُرْفَةِ بَعْضُ الْأَشْيَاءِ الْمُرِيبَةِ . وَقَدْ
حَاوَلْتُ الْاسْتِيعَاقَ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَسْمَعْ شَيْئًا ذَا أَهْمِيَّةٍ ، وَلَكِنْ لِهَذَا
السَّاكِنِ أَخَا ، اسْمُهُ كَامِلٌ ، لَمْ يَكُنْ يَزُورُهُ كَثِيرًا ، إِلَّا أَنَّهُ أَكْثَرَ مِنْ
زِيَارَتِهِ فِي الْأَيَّامِ الْآخِرَةِ ، كَمَا أَنَّ يوسفَ بَدَأَ يَتَغَيَّبُ كُلَّ يَوْمٍ
أَحَدٍ حِينَ لَا يَزُورُهُ أَخُوهُ .

فَسَأَلَ الضَّابِطُ :

- أَلَمْ تَسْمَعْهُمْ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ كِتَابٍ أَوْ مَجْلَدٍ ، أَوْ شَيْءٍ مِنْ

هَذَا الْقَبِيلِ ؟

فحرّكت رأسها غير متأكّدة، ثم لمعت عيناها، وقالت :

- الآن أتذكّر شيئاً لم أكن أعيره اهتماماً في حينه .

واقترَب الضابطُ منها وَكَلَّه أَمَلٌ :

- ما هو، أيتها السيدة ؟

- أذكّرُ في آخرِ مرّةٍ جاءَ فيها رجالُ التفتيشِ ، أنَّ إهابَ بنِ
يُوسفَ النطاسيّ ، وهوَ طفلٌ في العاشرةِ ، خرجَ قُبَيْلَ وُصُولِ
رِجالِ التفتيشِ بِلَحْظَةٍ ، وتحتَ إبطِهِ مُجلدٌ وضعه تحتَ جهازِ
الهاتفِ ، وعادَ إلى غُرفَتِهِ . وظنّنتُ حينئذٍ أنه أعادَ دَلِيلَ الهاتفِ
إلى مكانِهِ ، ولم أُلْقِ بالاً إلى أنه كانَ يحملُ تحتَ إبطِهِ مُجلداً آخرَ
هو دليلُ الهاتفِ الحقيقيّ . وبعدَ نهايةِ حَمَلَةِ التفتيشِ كانَ الطفلُ
إهابُ النطاسي أولَ من فَتَحَ غُرفَتَهُ وخرجَ إلى وسطِ الشُّقَّةِ ،
والتفتَ حوالِيهِ ، كأنما سَيَفْعَلُ أمراً مُريباً ، وأعادَ دليلَ الهاتفِ
إلى مكانِهِ ، وعادَ بِمجلدٍ آخرَ تحتَ إبطِهِ .

وابتسمتُ سعيدةً بِتقريرِها المِفْصَلِ ، فسألها الضابطُ المُكْتَتِرُ :

- ولكنْ كيفَ رأيته من داخلِ غُرفَتِكَ ؟

فقهتِ الجارةُ اللئيمةُ وقالتُ :

- من تُقْبِ المفتاحَ ، يا سيدي الضابطُ . لقد عَلَّمَنَا المُوَجَّهُ
الأعظمُ أن نكونَ حَذِرِينَ . . .

وخرجَ الضابطُ بِسُرْعَةٍ دُونَ أَنْ يُكَلِّفَ نَفْسَهُ عِناءَ شُكْرِ المَرْأَةِ
أَوْ رَفَعَ تَحِيَّةَ مُجَامَلَةٍ لَهَا . . .

وبعدَ دقائقَ من تلكِ الزيارة ، كان ضابطُ آخرُ يطرُقُ بابَ
المُهَنْدِسِ كاملِ النطاسيِّ .

وحينَ لم يَفْتَحْ أَحَدٌ دَفَعَ البابَ بِحِذَائِهِ العسْكَريِّ الحَشِينِ
فانْفَتَحَ ، ودَخَلَ أَغْوانُهُ يَبْحَثُونَ ، فلمَ يَعْثُرُوا على شيءٍ .

وبنْظَرَةٍ واحِدَةٍ إلى الغُرفةِ عَرَفَ الضابطُ أَنَّ أَهْلَهَا غَادَرُوهَا
إلى غيرِ رَجْعَةٍ ، فنَزَلَ مُسْرِعًا إلى سيارَتِهِ ، ورفَعَ سَمَاعَةَ
اللاسْلِكِيِّ ، وأخْبَرَ المَرْكَزَ العامَّ الَّذِي أَذاعَ رَقَمَ السَّيَّارةِ وأَرْقامَ
هُويَّاتِ الرَّاكِبِينَ بِهَا وَأَسْماءَهُمْ وَأَوْصافَهُمْ واتِّجَاهَهُم المَحْتَمَلَ .

وبدأتْ حَواجزُ الطَّرِيقِ تُوضَعُ ، وارتَفَعَ مَعَهَا عِدَدُ السَّياراتِ
المَوْقُوفَةِ ، وطالَتْ صُفُوفُهَا ، خُصُوصًا أَنَّ اليَوْمَ كانَ يَوْمَ عِيدٍ .

وفي قرية (إشراق) ببلاد الشمس ، على حدود بلاد الصقيع ، جلس الفتى (صُبْحِي) إلى جهازه اللاسلكي لِيَسْلَى بالاستماع إلى ما يَروُجُ داخل بلاد الصقيع .

كَانَ اللاسلكي هَوَايَتَهُ المفضَّلة ، وكانَ يجلسُ إليه الساعات الطوالَ لِيستمعَ إلى محادثاتِ الناسِ من جميعِ أطرافِ الأرضِ ، ويتعرَّفَ زملاءَهُ الهواةَ بالدخولِ معهم في الحديثِ ، ومعرفةِ بلادِهِم .

وبينما هو يستمعُ ذلكَ المساءَ ويديرُ زرَّ الموجاتِ إذ وقعَ في المَوْجَةِ التي تُذيعُ عليها شرطةُ بلادِ الصقيعِ أوامرَ القبضِ على عائِلَتَيِ كَامِلٍ ويوسفَ النطاسيِّ ؛ لأنها يهْرَبَانِ المجلدَ المحرَّم في اتجاهِ بلادِ الشمسِ .

وسجَّلَ صُبْحِي رسالةَ الشرطةِ الصقيعيَّةِ على كاسيت ، ونَزَلَ يَجْرِي إلى أبيهِ وأمسَكَ بيَدِهِ :

- تعال يا أبي، تعال معي . . .

ووضع الأب جريدته، وصعد مع ابنه إلى غرفته بالسطح،
وكان اللاسلكي ما يزال يذيع الرسالة، ويُعطي أوصاف
العائلتين ورقم السيارة ونوعها ويبرزُ خطورة المجلد الذي
يحملُ رؤسوماً ممنوعةً للفنان المتمرد برهان بوريش .

واستمع الأب بإمعان، ثم أخذ التسجيل، وخرج قائلاً
لصبي:

- ابق أنت هنا، وتتبع آخر تطورات الأحداث . وسأذهب
أنا إلى رئيس مجلس القرية لأخبره .

ولم تمض ساعة على إخبار المجلس حتى وصل الخبر إلى
جميع سكان القرية، فنظموا فرق الإنقاذ، وتفرقوا على طول
الحدود القريبة مع بلاد الصقيع لعلهم يستطيعون مساعدة
العائلتين الهاربتين؛ فقد كان أهل بلاد الشمس يشعرون
بعطف كبير على سكان بلاد الصقيع المسحوقين المحرومين،
ويتحمسون لمساعدة جميع من يحاول الفرار منهم .

واجتمعُ شيوخُ القرية في قاعةِ البلدية ينتظرونَ، ويطلبونَ
من رئيسِ المجلسِ تعيينَ مَهَامَ لهم لِيُسَاعِدُوا هُمْ، كذلكَ،
فقالَ لهم ليتخلَّصَ منهم :

- اذهبُوا وَصَلُّوا وادْعُوا اللهَ أَنْ يُنْقِذَ النِّطَاسِينَ ويساعدَ
برهانَ الفنانَ في مُحَنَّتِهِ . . .

وخرجَ الشيوخُ والعجائزُ وهم يَهْلُلُونَ ويكَبِّرونَ ويرفَعُونَ
أصواتَهُم بالدُّعاءِ لِلَّهِ أَنْ يُنْقِذَ الهارينَ .

ولم يكتَفِ صبحي بالإنصَافِ؛ فقد كان يَحْشَى أَنْ
تَقْبِضَ شُرْطَةُ الصقيعِ على العائِلَتَيْنِ، كما تَفْعَلُ دائِماً، فلم
يَسْبِقْ لأحدٍ أَنْ استطاعَ اجتيازَ الحُدُودِ الجَهَنَّمِيَّةِ المُحَصَّنَةِ
بالأسوارِ والمتاريسِ^(١) والأسلاكِ الشائِكَةِ والألغامِ .
فأمسَكَ بميكرفونِ جهازِهِ واختارَ موجَةً واسعةً تُسمَعُ بِقُوَّةٍ
داخلَ بلادِ الصقيعِ وأخذ يذيعُ عليها الرسالةَ التاليةَ :

« إلى جميع الأصدقاءِ في العالمِ، هذا صُبْحِي يخاطبُكُم،
قريَّتُنَا اليومَ تعيشُ حدثاً فريداً من نوعِهِ . فنحنُ نستقبلُ بيننا

(١) المتاريسُ : ما يوضعُ في الطريقِ من أجلِ العرقلةِ، وغالباً ما توضعُ المتاريسُ
للأعداءِ والخطرينَ على الأمنِ .

عائلة النطاسي التي استطاعت اختراق الحدود الجهنمية والهروب من بلاد الصقيع إلى بلاد الشمس . وهذه أول عائلة تفعل ذلك بنجاح . ولن نقول كيف استطاعت الهروب حتى لا نكشف السر لشُرطة الصقيع . إن قريتنا سعيدة باستقبال آل النطاسي ، أبناء الطبيب الشهير الذي أغدّمه الموجّه الأعظم ، رغم أنه كان ساعده الأيمن في الاستيلاء على الحكم .

«وأرجو من جميع الزملاء في أنحاء العالم أن يردّدوا معي الخبر السار ، ويبتعثوا بتهانئهم إليهم في قرية الإشراق» .
وسجّل الرسالة وأخذ يكرّرها .

ودخل أبوه عليه ليسأله عن آخر الأخبار ، فسمع الرسالة ، فقال له مُستغرباً :

- من أين لك هذا الخبر ؟

- اخترعته . لا يمكن أن نقعد سلبيين ونتظر أن يقبض الصّقيعون على أولئك المساكين ، أنا أعتقد أنهم إذا التقطوا هذه الرسالة ، ستفت في عزمهم ، وتبرّد حماسهم في البحث عن الهاربين .

- هذا إذا صدَّقوها !

- على الأقل ستبتُّ الشكَّ في عُقولهم . . . فلم يسبق أن سمعوا رسالة كهذه .

ووقف الأب ينظرُ إلى الجهازِ قليلاً ثم قال :

- ولمَ لا ؟ ولكنَّهم سيُخابِرونَ جِوَّاسِيَّتهم هُنا . فلا بدَّ من عملٍ شيءٍ لِتَضْلِيلِهِم . لا بدَّ أن نمثِّلَ المسرحيةَ إلى نهايتها . ونزلَ إلى أسفل ، فرفعَ سَماعةَ الهاتفِ ، وأخبرَ رئيسَ المجلسِ بالفِكرةِ .

وأُعْجِبَ رئيسُ المجلسِ جدًّا بالحيلةِ الذكيَّةِ ، ورَتَّبَ استقبالا حافلاً لِضُيوفٍ وَهَمِيمِينَ ، واستدعى الجوقةَ الموسيقيةَ ، وأشعلَ الأضواءَ ، وأطلقَ صفَّاراتِ المصانعِ ، واجتمعَ الناسُ على بابِ المجلسِ ، فوقفَ الرئيسُ يخطبُ فيهم مُهتِّئاً عائِلةَ النطاسيِّ بِسلامةِ اجتيازِ الحُدودِ الجهنميةِ ، والوصولِ إلى قريةِ (إشراق) وبلادِ الشمسِ . . .

ونقلتِ الإذاعاتُ ووكالاتُ الأنباءِ الخبرَ ، وأخذتْ تذيعُهُ بحماسٍ وفرحٍ كبيرين . . .

وأدارَ (صباحي) جهازَهُ على مَوْجَةِ الشُّرْطَةِ الصَّقِيعِيَّةِ،
فوجدَهَا ما تزالُ تبحثُ . كان صوتُ الموجِّهِ الإقليمِيِّ يَصْرَحُ
فيهم :

- لا تَنخدِعُوا بِأكاذيبِ الشَّمْسِيِّينَ ؛ فلا يُمكنُ أن يكونَ
النطاسيونَ قد ذهبُوا بعيدا . عبُورُ الحدودِ مُستحيلٌ !
ورغمَ صُراخِ الموجِّهِ المحليِّ الذي كانَ يُشْبِهُ النَّبَاحَ في مُكَبَّرِ
الصوتِ فقد لَمَسَ فيه صُباحي نبرةَ خيبةٍ أملٍ ويأسٍ وخوفٍ
على مَنْصِبِهِ من نَقْمَةِ الموجِّهِ الأعْظَمِ !

كَانَ كَامِلٌ وَأُخُوهُ وَأُسْرَتَاهُمَا قَدْ غَادَرُوا الشُّقَّةَ ذَلِكَ الصَّبَاحَ فِي
اتِّجَاهِ الْحُدُودِ .

وَكَانَ الْيَوْمُ عِيدًا وَطَنِيًّا تُقَامُ فِيهِ الْمَهْرَجَانَاتُ ، وَيَسْمَحُ فِيهِ
لِلنَّاسِ بِالخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الضُّوَا حِي الْقَرْيَةِ بِدُونِ جَوَازَاتٍ
وَلَا تَأْشِيرَاتٍ لِلتَّنَزُّهِ وَالرَّقْصِ وَالْغِنَاءِ . وَكَانَتِ الْحُكُومَةُ تُوزِّعُ
مَوَادَّ غِذَائِيَّةً إِضَافِيَّةً وَبَعْضَ الْمَشْرُوبَاتِ وَالْحَلَوَى وَالْبَالُونَاتِ
الْمُزْخَرَفَةِ بِوَجْهِ الْمَوْجِّهِ الْأَعْظَمِ لِإِطْلَاقِهَا فِي الْهَوَاءِ .

وَاسْتَغْلَ كَامِلٌ سَاعَةً أَزْدَحَامِ الطُّرُقَاتِ بِالْمَازَّةِ وَالْحَافِلَاتِ
وَسِيَّارَاتِ الْأَعْيَانِ مِنْ رِجَالِ الْمَوْجِّهِ الْأَعْظَمِ ، وَخَرَجَ بِجَمَاعَتِهِ فِي
سَيَّارَةٍ عَمَلِهِ ، وَفَوْقَ سَطْحِهَا الْقِمَاشُ وَالْحَبَالُ ، وَفِي حَقِيْبَتِهَا كُلُّ
مَا تَمْلِكُهُ الْعَائِلَتَانِ مِنْ أَشْيَاءٍ يَسْهَلُ حَمْلُهَا .

وَأَهَمُّ مَا كَانَتْ تَحْمِلُهُ السَّيَّارَةُ الْمَجْلَدُ الْمَحْرَّمُ ، وَفِي مَكَانٍ
يَضَعُ بُكَتْشَافَهُ .

وانطلقت السيارة غربًا نحو الحدود المُشْرِفة على بلاد
الشمس .

وكان بالسيارة جهازُ راديو، ففتحه كاملٌ على موجة الشرطة
ليستمعَ إلى رسائلها ومكالماتها زيادةً في الاحتياط، وسأله
يوسفُ:

- كيف استطعت الحصولَ على الموجة وهي محرمةٌ؟

- أنا مهندسٌ، هل نسيتَ؟

وبعد ساعةٍ من السيرِ الهادئِ في جوِّ الاحتفالاتِ الرسميةِ
سمعَ رقمَ سيارتهِ في الجهازِ وأسماءَ جميعِ ركَّابِ السيارةِ .
وأنصتَ الجميعُ في رُعبٍ إلى الرسالةِ الجهنميةِ التي كانت تُرسلُ
على أمواجِ الشرطةِ في كلِّ اتجاهٍ . . .

ورأى من بعيدٍ سيارةَ شرطةٍ وهي تستعدُّ لقفلِ الطريقِ
أمامه، فداسَ على مَدَاسِ البنزينِ ومرَّ بسرعةٍ خاطفةٍ! ووقفَ
أحدهمُ يصفرُّ له ليقفَ دونَ جدوى، فركبَ السيارةَ، وانطلقَ
خلفه يطاردُه .

وانزعجَ جميعُ رُكَّابِ السيارة، وأخذتُ وردةٌ تبكي، فقالَ
كاملٌ:

- لا تخافي! أنا أعرفُ هذه المنطقةَ أكثرَ منهم، ولن
يُمسِكُونَا . . .

وأبْطَأَ السيرَ قليلاً، ثمَّ انحرفَ عن الطريقِ، ودخلَ غابةً
كثيفةً، وسارَ في طريقٍ قرويٍّ ضيقٍ، ويوسفُ يحاولُ تتبُّعَ
الطريقِ الذي لا يُوجَدُ على الخريطةِ.

وتوغَّلُوا في المسالكِ الوغرةِ المتربةِ التي كانتَ ما تزالُ بها بقيةُ
وَحْلِ من ثلوجِ الربيعِ، ولكنَّ السيارةَ كانتَ قويَّةً، ومزوَّدةً
بعجلاتٍ خاصةٍ بالطُّرُقِ العسيرةِ، وبقوَّةِ الجذبِ الأماميِّ.

وبعدَ ساعاتٍ رهيبةٍ من الضربِ في المتاهاتِ الخاليةِ
والمسالكِ المُقْفِرةِ المُعْتِمَةِ رَغَمَ النهارِ، توقَّفَ كاملٌ بساحةٍ خاليةٍ
من الأشجارِ، وطلبَ من الجميعِ النزولَ.

وذهبَ كاملٌ ويوسفُ في اتجاهينِ مختلفينِ لاستِكشافِ
المكانِ لعلَّهما يَعْثُرَانِ على أثرٍ للحياةِ والناسِ فلمْ يَجِدَا شيئاً.

كان الموجهُ الأعظمُ قد أمرَ بإخلاءِ منطقةِ الحدودِ من
الناسِ حتى لا يتسرَّبوا إلى الخارجِ ، أو تتسرَّب إليهم أشياءُ
غيرُ مرغوبٍ فيها من الخارجِ ، مثل الكُتُبِ والصُّحفِ
والأسلحةِ وأجهزةِ الراديو.

وكان كلُّ واحدٍ من آلِ النطاسيِّ يعرفُ دورهُ ؛ فقد تدرَّبوا
عليه في الغرفةِ الصغيرةِ عشراتِ المراتِ حتى أصبحوا قادرينَ
على أدائه بِعيونٍ مُغمضةِ .

وبسرعةِ البرقِ أنزلوا كومةَ القماشِ ونشروها على الأرضِ ،
وأدخلوها في شبكةِ الحبالِ المربوطةِ إلى سلَّةٍ من الحبالِ الغليظةِ
ذاتِ قَعَرٍ خشبيٍّ متينِ .

وأشعلَ كاملُ النارِ في مشعلٍ تلحيمٍ يدويٍّ ، وفتحَ فمَ
القماشِ الذي كانَ عبارةً عن كيسٍ ضخَمٍ ، ووجهَ لسانَ اللهبِ
إلى داخلِهِ ، فبدأ يَنْتَفِخُ أمامَ دهشةِ الصغارِ والكبارِ وكأنهم لم
يتوقَّعوه أن يفعلَ .

وبعدَ بضعِ دقائقِ امتلأَ الكيسُ القماشي الضخمُ ، وتحوَّلَ إلى
بالونٍ عظيمٍ وأخذَ يتملَّمَلُ ليُغادرَ الأرضَ نحوَ الفضاءِ .

وكانت السِّلَّةُ المَرْبُوطَةُ إِلَيْهِ مُثَبَّتَةً إِلَى الْأَرْضِ بِالْأَوْتَادِ،
وَمُثْقَلَةً بِأَكْيَاسِ الرَّمْلِ وَالْحِجَارَةِ .

وكانتِ المرأتانِ قد نَقَلَتَا كُلَّ مَا كَانَ بِالسَّيَّارَةِ مِنْ أَمْتَعَةٍ إِلَى
السِّلَّةِ المَرْبُوعَةِ ، ودخلتا إليها صُحْبَةً الطِّفْلِينِ فِي انْتِظَارِ زَوْجِيهِمَا .
ووقفَ كامِلٌ يَنْظُرُ حَوَالِيَهُ فِي قَلْقٍ ، فَسَأَلَهُ يَوْسُفُ :

- ماذا ؟

- لا شيءَ . فَقَطُّ لَا يَسْتَطِيعُ الْوَاحِدُ فِي هَذِهِ الْغَايَةِ أَنْ يَعْرِفَ
اتِّجَاهَ الرِّيحِ .

- أَلَمْ تَقُلْ إِنَّكَ سَمِعْتَ النَّشْرَةَ الْجَوِّيَّةَ ، وَأَنَّ الْهَوَاءَ سَيَكُونُ
مَلَأْنًا ؟

فَحَرَّكَ رَأْسَهُ مُوَافِقًا :

- وَلَكِنَّ الرِّيحَ تُغَيِّرُ اتِّجَاهَهَا دُونَ سَابِقِ إِنْذَارِ .

فَنَظَرَ يَوْسُفُ إِلَى سَمَاءِ اللَّيْلِ الْحَالِكِ بِقَلْقٍ وَقَالَ :

- عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَمِدَ عَلَى اللَّهِ .

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ سَمِعَ كامِلٌ صَوْتَ مُحَرِّكِ سَيَّارَةٍ قَادِمَةٍ
نَحْوَهُمْ ، فَاسْرَعَ إِلَى سَيَّارَتِهِ وَانْدَسَّ تَحْتَهَا لِيُخْرِجَ الْمَجْلَدَ .

وفي تلك اللحظة كان المنطاد المتفخج جدًّا يتَمَلَمَلُ ويترنَّحُ
لِيَنْطَلِقَ ، واستطاع أن يستلَّ بعض الأوتاد من الأرض .

واقتربت سيارةُ حرسِ الحدودِ حتى ظهرَ نورها على بُعدِ
كيلومترٍ أو أقلَّ

وترامى إليهم نباحُ سِرْبٍ هائلٍ من الكلابِ البوليسيةِ
الفاثكةِ وهي تقتربُ نحوهم بسرعةٍ مُرعبَةٍ .

وخرجَ كاملٌ من تحتِ السيارةِ بالمجلدِ تحتَ إبطِهِ ليجدَ أنَّ
المنطادَ قد اقتلعَ آخرَ وَتَدٍ وارْتَفَعَ عن الأرضِ وسمعَ
صرخةَ زوجته وأخيه وهم يمدُّونَ أيديهم نحوه في يأسٍ

وبحركةٍ يائسةٍ ارتمى كاملٌ على آخرِ حَبْلِ يَتَدَلَّى من سَلَّةِ
المنطادِ ، وتعلَّقَ به يَمِينُهُ ، وركزَ المجلدَ في حزامِهِ ، وأخذَ
يتسلَّقُ نحوهم بمشقةٍ شديدةٍ لثقلِ مَلَابِسِهِ

ووصلتِ الكلابُ المتوحشةُ إلى الفجوةِ ، وبدأتْ تثبُّ في
الهواءِ وتنقضُّ لثُمسِكَ بِقَدَمَيْ كاملٍ المعلقِ بحبلِ المنطادِ ، وتَهْرُ
هريراً مُخيفاً ، وتُكشِّرُ عن أنيابِ كَنَصَالِ الخناجرِ وقد ملأتِ
الساحةَ الخاليةَ من الأشجارِ . . .

وَأَمْسَكَ يَوْسُفُ وَسَنَاءُ بِالْحَبْلِ وَأَخَذَا يَسْحَبَانِهِ حَتَّى اسْتَطَاعَا
الْإِمْسَاكَ بِيَدٍ كَامِلٍ . وَتَعَاوَنَ الْجَمِيعُ عَلَى رَفْعِهِ إِلَى دَاخِلِ
السَّلَةِ ، فَجَلَسَ يَلْهَثُ مَبْهُورَ الْأَنْفَاسِ ، وَقَدْ كَادَتْ رِثَاهُ
تَتَمَزَّقَانِ !

ووصلت سيارةُ حَرَسِ الحُدُودِ ، فخرجَ منها أربعةُ رجالٍ
مُسَلَّحِينَ بِالرَّشَاشَاتِ وَقَفُوا يَنْظُرُونَ إِلَى الْمَرْكَبَةِ الْهَوَائِيَّةِ ، وَهِيَ
تَخْتَرِقُ الْفَجْوَةَ الضَّيْقَةَ بَيْنَ أَذْوَاحِ الْأَرْزِ^(١) الْبَارِدَةِ الْبَاسِقَةِ .

وَرَفَعَ قَائِدُهُمْ ضَوْءًا كَاشِفًا بِجَانِبِ السَّيَّارَةِ ، فَأَضَاءَ بِهِ
الْمَنْطَادَ ، وَظَهَرَتْ صُورَةُ الْمَوْجِّهِ الْأَعْظَمِ كَبِيرَةً عَلَى جَوَانِبِهِ .
وَأَعْطَى الْقَائِدُ أَوْامِرَهُ لَجُنُودِهِ فَصَوَّبُوا أَسْلِحَتَهُمْ نَحْوَ الْبَالُونِ ،
وَلَكِنَّهُمْ تَرَدَّدُوا فِي إِطْلَاقِ النَّارِ عَلَى وَجْهِ الْمَوْجِّهِ الْأَعْظَمِ ،
فَاخْتَطَفَ هُوَ الرَّشَاشُ مِنْ يَدِ أَحَدِهِمْ وَأَخَذَ يُطْلِقُ النَّارَ حَوْلَ
الْمَنْطَادِ وَيَصِيحُ :

– أَلْقُوا إِلَيْنَا بِالْمَجْلَدِ أَوْ نَنْقُبُ الْبَالُونِ فَتَخْتَرِقُونَ جَمِيعًا . . .

(١) أَذْوَاحِ الْأَرْزِ: أَشْجَارُ الْأَرْزِ الْعَظِيمَةِ الْمَتَشَعَّةِ ، ذَاتِ الْفُرُوعِ الْمَمْتَدَةِ .

وحين سمعت وردة ذلك أُصيبَتْ بهلع شديد، وكانت تَضُمُّ
المجلدَ إلى صدرِها فألقت به إليهم صائحةً:

- خذوه . . . خذوه . ولا تطلقوا النار!

وكاد قلبُ يوسفَ يتوقَّفُ، وهو يراها ترمي إليهم بالمجلدِ
النفيسِ دونَ جدوى . . . فقد تلقاهُ رئيسُهم قبل وقوعِهِ، وأمرَ
بثقبِ بالونِ المنطادِ، وقد زال خوفُهُ على المجلدِ من الاحتراق أو
الضياع.

وكانَ كاملٌ قد استرجَعَ أنفاسه، فوقفَ وتعلقَ بحبلٍ يتدلى
من أعلى البالون، فمالَ المنطادُ بسرعةٍ عن الفجوة المكشوفة،
واختفى عن أنظارِ المطاردينَ خلفَ رؤوسِ الأدواحِ والأدغالِ
الكثيفة، ولاحقتهم فرقةُ رصاصِ الرشاشاتِ في الظلام . . .

ونظرَ ناحيةَ الحدود، فرأى عن بُعدِ أضواءَ قريةٍ يقطنها
بعضُ عمالِ المحاجر والطُّرُق، وقد تجمَّعوا وسطَ ساحتها
يطلقونَ البالوناتِ الكبيرة والصغيرة في اتجاهِ بلادِ الشمس،
وعليها صُورُ الموجِّهِ الأعظم، وقد أحاطَ بهم رجالُ الدركِ
والشرطةُ وحرسُ الحدودِ ليتأكَّدوا من أنَّ أحدًا لم يتعلَّقَ بها ليقفزَ
على الحدودِ إلى بلادِ الشمسِ المجاورة . . .

كانوا يقصدون إيهام أهل بلاد الشمس أنهم يعيشون في بلاد الصقيع حياة سعيدة هائلة ، وأنهم يحبون زعيمهم ونظامهم .

وأمسك كامل بالحبال ، فوجه المنطاد نحو القرية ، واندس به بين البالونات الطائرة ، فاختلط بها واختفى عن أنظار جميع المطاردين

وكانت الريح شرقية رخاء فسارت بهم نحو الغرب ببطء شديد ، وكامل يذعو الله في سره ، ويشد الحبال في اتجاه الأسوار العالية .

وبعد لحظات عسيرة من الحسرة والخوف الشديد لأحت لهم متاريس وأسوار الحدود ، وخلفها قرى بلاد الشمس بأضوائها الباهرة المتألئة ، وفي مقدمتها قرية (إشراق) .

وانطلق الرصاص من أبراج الحراسة بطريقة عشوائية يثقب البالونات ويسقطها

وخفض كامل نار الشغلة إلى حدّها الأدنى ، فأخذ المنطاد في الهبوط ، وكامل يسحب الحبال ويميل بجسده خارج السلة في اتجاه الجانب الآخر من الحدود

ومن غابة قريية من قرية (إشراق) انطلق نورٌ وهَّاجٌ أنارَ
المنطادَ، فخافَ كاملٌ أن يكشفهم للقنَّاصَةِ من جانبِ الحدودِ
الصقيعية، وأطلَّ يصيحُ فيهم:
- أطفئوا النُّورَ. . أزجوكُم.

وفي اللحظة نفسها توجهَ الضوءُ الكشافُ نحوَ بُرجِ الحِرَاسَةِ
الصقيعي، فأغرقَ الحرسَ بأشعَّتِهِ الساطِعةِ التي أغشت
عُيُونَهُمْ، وشغلتهم عن إطلاقِ النارِ على المنطادِ . . .
وسمعَ ركَّابُ المنطادِ صوتَ بوقٍ من ساحةِ بقرية إشراق
يخاطبهم:

- مرحبًا بكم يا آل النُّطاسي في أرضِ الشمسِ . . ! جميعُ
أهلِ قريةِ (إشراق) يهتفونكم ويرحبونَ بكم . . ! لقد اجتَزْتُمُ
الحدودَ الآنَ ولا خوفَ عليكم. تعالوا. انزلوا هُنا وسطَ
السَّاحةِ.

ومالَ كاملٌ بالمنطادَ، وأخذَ ينزلُ بهِ رويدًا رويدًا بينَ حمَّاسِ
أهلِ القريةِ وتصفيقاتهم وأغانيهم ومضاتِ آلاتِ التصويرِ
وكاميراتِ الفيديو والتلفزيون.

وَحِينَ اقْتَرَبَتْ حَبَالُهُ مِنَ الْأَرْضِ تَعَلَّقَ بِهَا رِجَالُ الْقَرْيَةِ
وَأَخَذُوا يَجْذِبُونَ الْمُنْتَطَادَ إِلَى أَسْفَلَ حَتَّى اسْتَقَرَّ عَلَى الْأَرْضِ .

وَفَسَحَ رِجَالُ النِّظَامِ الطَّرِيقَ لِرَئِيسِ الْمَجْلِسِ لِيَتَقَدَّمَ لِلتَّرْحِيبِ
بِالْهَاطِطِينَ مِنَ السَّمَاءِ .

وَبَعْدَ مَرَاسِيمِ الْاِسْتِقْبَالِ وَالتَّرْحِيبِ جَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَحَمَلَتْ
الْجَمِيعَ إِلَى فُنْدُقِ الْقَرْيَةِ ، حَيْثُ نَامُوا اللَّيْلَةَ تَحْتَ حِرَاسَةِ
مَشَدَّةٍ خَشِيَّةٍ تَسْرُبُ عُمَلَاءُ الْمَوْجِّهِ الْأَعْظَمِ وَجَوَاسِيسِهِ وَقَتْلَتِهِ
الْمُنْتَشِرِينَ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ .

وفي الصباح جلس الجميع يُفطرون في قاعة المطعم الأنيقة
الملحقة بالجناحين المخصّصين لكبار الضيوف .

وأعرب يوسف لأخيه عن أسفه العميق لما فعلته زوجته وردة
بالمجلد الثمين ، وهوّن عليه أخوه بقوله :

- المهم هو أننا نجوتنا بأرواحنا .

وأضافت سناء لتسري عن وردة التي كانت تُعاني شعورًا
مؤلمًا بالذنب لتصرّفها العشوائي الطائش :

- أي شخص في مكانها كان يفعل الشيء نفسه . لم يكن
لأحد منا وقت للتفكير الواضح . المهم هو أننا نجوتنا من
جحيم بلاد الصقيع ، وأنكما ستأخّلكما فرصة تطبيق
نظريتيكما ومشاريعكما وإخراجها إلى الوجود .

وجاء رئيس المجلس لتحية ضيوفه واضطحابهما إلى دار
البلدية ، لحضور اجتماع مع بقية الأعضاء لترتيب إقامتهم

وتشغيلهم . وأخذ الاثنان أوراقهما لعرض مشاريعهما على المجلس .

وجاءت زوجة الرئيس وعدد من سيدات المدينة لزيارة السيدتين الضيفتين سناء ووردة . وجئن بهدايا من الملابس الفاخرة والأزهار والفواكه والمجلات المصورة .

وجلس إهاب ورندة يلعبان معاً في الغرفة التي خصصت لهما .

وأقامت البلدية على شرفهم حفلة غداء ضخمة ، وأخبرهم رئيس المجلس أن رئيس بلاد الشمس سيستقبلهم في اليوم الموالي ، وأن طائرة خاصة ستأتي لتأخذهم إلى العاصمة صباح الغد .

وفي المساء جلسوا يتفحصون على التلفزيون .

وبدأت نشرة الأخبار ، فكان وُصُولهم إلى بلاد الشمس من بين الأخبار المهمة الأولى . وظهروا جميعاً في المنطاد يطلّون مرهقين ، ولكن سعداء باسمين . . .

وانصرف الصَّغِيرَانِ لِلْعِبِّ بِمَا اضْطَحَبَاهُ مِنْ لُعْبِهِمَا الْقَلِيلَةِ ،
وأخرج إهابٌ من محفظته رِزْمَةً أوراقٍ كبيرةً ، وذهب بها إلى أبيه
قائلاً :

- هل تستطيع أن تُلصِقَ لي هذه في مجلِّدٍ؟

وتناول الأبُ رِزْمَةَ الأورَاقِ من وَلَدِهِ ، وصرفهُ قائلاً :

- حين تنتهي الأخبارُ.

وانتهت نشرةُ الأخبارِ ، ودخلَ كاملٌ وزوجتهُ غرفتهما ، ووجدَ
يوسفُ نفسه مُمَسِّكًا برِزْمَةِ وَرَقٍ في حجرِهِ ، ونَظَرَ إليها ،
فانقلبَ قلبُهُ ، وأخذ ينبضُ بِسُرْعَةٍ . . .

وتصفَّحَ الأوراقَ فإذا هي نُسخٌ طبقَ الأصلِ لرُسُومِ المجلِّدِ
الذي فقدوه ! ولم يتمالك أن قامَ وطرقَ بابَ أخيه ، وحينَ خرجَ
إليه رفعَ الرِزْمَةَ أمامَ عينيه :

- أتذكُرُ هذه الأوراقَ؟

ونظرَ إليها كاملٌ غيرَ فَاهِمٍ ، فأضافَ يوسفُ :

- إِنَّهَا الرُّسُومُ الَّتِي نَقَلَهَا إِهَابٌ مِنَ الْمَجْلَدِ الْمَحْرَمِ .
وَأَمْسَكَ بِهَا كَامِلٌ وَأَخَذَ يَتَصَفَّحُهَا ، وَابْتِسَامَةٌ عَرِيضَةٌ
تَرْتَسِمُ عَلَى وَجْهِهِ ، وَقَالَ :

- قَدْ يَكُونُ لِهَذِهِ الرُّسُومِ أَثَرٌ أَهَمُّ مِنَ الْمَجْلَدِ . . .
وَنَادَى زَوْجَتَهُ سَنَاءَ فَخَرَجَتْ هِيَ الْآخَرَى ، وَجَاءَتْ وَرْدَةٌ
فَكَانَتْ أَشْعَدَ الْأَرْبَعَةِ بِالْمَفَاجَأَةِ . . .

وَذَهَبَ الْجَمِيعُ لِيُهَيِّئُوا إِهَابًا ، فَوَجَدُوهُ نَائِمًا بِمَلَابِسِهِ فَاَنْحَنُوا
عَلَيْهِ وَاحِدًا وَوَاحِدَةً وَقَبَّلُوهُ . وَتَنَاوَلَتْهُ أُمُّهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا وَأَخَذَتْ
تَضُمُّهُ ، وَهِيَ تَخْلَعُ مَلَابِسَهُ لَتُلْبِسَهُ مَنَامَتَهُ (١) .

وَلَمْ يَسْتَطِعْ يَوْسُفُ النَّوْمَ فَجَلَسَ فِي صَالُونِ الْجَنَاحِ الْفَاخِرِ
يَتَصَفَّحُ الرُّسُومَ وَيُدَقِّقُ فِيهَا النَّظَرَ بَعِينَ فَاحِصَةً .

وَجَذِبَتْ انْتِبَاهَهُ رَمُوزٌ وَأَرْقَامٌ غَامِضَةٌ تَحْتَ تَوْقِيعِ الرَّسَامِ
حَسِبَهَا أَوَّلًا تَوَارِيخَ رَسْمِ اللُّوْحَاتِ ، وَأَخْرَجَ بَلَّوْرَتَهُ الْمَكْبَّرَةَ ،
وَأَخَذَ يَفْحَصُهَا عَنْ قَرِيبٍ فَإِذَا هِيَ أَجْزَاءٌ مِنْ مُعَادَلَةٍ كِيَاوِيَةٍ

(١) منامته : ملابس النوم .

معقّدة تُشِيرُ عَلَى جَمِيعِ صَفَحَاتِ المجلّد، وكان إهابٌ قد
نَقَلَهَا بِكُلِّ أَمَانَةٍ وَدَقَّةٍ عَلَى أَنَّهَا طَرَفٌ مِنَ الرَّسْمِ .
وَقَامَ فَجَلَسَ إِلَى مَكْتَبِهِ ، وَأَخْرَجَ رِزْمَةَ أَوْرَاقٍ ، وَأَخَذَ يَنْقُلُ
الأَرْقَامَ وَالرُّمُوزَ مُتَتَبِعًا نِظَامَ تَرْقِيمِ الصَّفَحَاتِ .

وحيث انتهى من نقل المعادلة الطويلة تبين له أنه أمام سرٍّ خطيرٍ جدًّا، بل وأخطر من كل ما كانوا يتصورون .

وأعاد قراءة المعادلة مرارًا وبكلِّ تدقيقٍ وتمهّلٍ حتّى لم يبقَ له شكٌّ في حقيقة ما اكتشف .

وراح فتمدّد في فراشه، وأغمض عينيه مُفكّرًا فيما يجبُ عليه أن يفعل .

وما إن لاحت خُيوطُ الفجرِ الأولى حتّى نزلَ من سريره، وذهبَ إلى غرفة أخيه يطرقُ عليه الباب . وحينَ خرجَ يفرّكُ عينيه دعاهُ يوسفُ للجلوسِ :

- تعالَ يا كاملُ . أريدُ الحديثَ إليك في موضوعٍ مهمٍّ .

- ألا تستطيعُ الانتظارَ حتّى الصّباحِ ؟

- كلاً ! اجلس .

وجلسَ كاملٌ وقد استيقظَ تمامًا ؛ فلم يكنْ أخوه ممّنْ تشغلُّهم المشكلاتُ الصغيرةُ . قالَ يوسفُ :

- اسمع . إنَّ ما كانَ يَحْمِلُهُ المجلدُ المحرَّمُ أخطرُ كثيرًا من
مجردِ رُسومٍ فنَّانٍ متمرِّدٍ .

- ماذا تعني؟

- انظرُ .

وأشارَ إلى الأرقامِ والرموزِ تحتَ توقيعاتِ الرَّسامِ ،
وأضافَ :

- لنَ تستطيعَ أنتَ قِراءَتَها ولا فكَّ شَفَرَتِها ، فهي مُعادلاتٌ
يُوكيماويةٌ حديثةُ الاكتِشافِ . وقد يَكُونُ الموجهُ الأعظمُ أمرَ
العُلَماءِ الصَّقيعيينَ باختراعِ سلاحٍ جديدٍ فتَّاكٍ ، فاخترَعُوا له
هذه المُعادلةُ .

- هل تعني أنها مُعادلةٌ لصنعِ قُنْبلةٍ كالهيدروجينيةِ أو
النَّوَوْنِيَّةِ؟

- ليسَ تمامًا . وليسَ لها المفعولُ نفسُه ؛ فهي لا تَهْدِمُ ولا
تَقْتُلُ . ولكنها تُحوِّلُ طَبَعَ الإنسانِ !

- كيفَ ؟ !

- هذه مُعَادَلَةٌ لِصُنْعِ مَادَّةٍ لِتَحْوِيلِ هُرْمُونَاتِ الذُّكُورَةِ إِلَى هُرْمُونَاتِ أُنُوثَةٍ دُونَ تَغْيِيرِ الْمَظْهَرِ الْخَارِجِيِّ لِلرِّجَالِ .

- تَغْنِي أَنَّهُ بِالتَّعَرُّضِ لِهَذِهِ الْهُرْمُونَاتِ يَتَحَوَّلُ الرِّجَالُ إِلَى إِنَاثٍ مَسَالِمَاتٍ نَاعِمَاتِ الطَّبَعِ ، يَرْفُضْنَ الْعُنْفَ ، وَيُكْرِهْنَ الْحُرُوبَ . . .

- تَمَامًا !

- وَلَكِنْ كَيْفَ يُمْكِنُ اسْتِعْمَالُهُ ؟

- بِطَرِيقَةٍ يَسِيرَةٍ ، تُلْقَى كَمِيَّةٌ كَافِيَةٌ مِنْهُ دَاخِلَ مُسْتَوْدَعَاتِ مِيَاهِ الْمَدِينِ الرَّئِيسَةِ بِطَرِيقَةٍ مُنْتَظِمَةٍ ، فَهُوَ لَا طَعْمَ لَهُ وَلَا لَوْنٌ وَلَا رَائِحَةَ ، وَبَعْدَ سَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثِ يَكُونُ كُلُّ الَّذِينَ شَرَبُوا مِيَاهِ الْمُسْتَوْدَعِ أَوْ اغْتَسَلُوا بِهَا قَدْ تَحَوَّلُوا إِلَى نِسَاءٍ وَدِيعَاتٍ نَاعِمَاتٍ كَالْحَرِيرِ ، وَعِنْدَئِذٍ تَهْجُمُ جُيُوشُ الْمُوجِّهِ الْأَعْظَمِ ، وَتُحْتَلُّ بِلَادُ الشَّمْسِ دُونَ عَنَاءٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ .

وَفَتَحَ كَامِلٌ فَمَهُ مُنْذِهِشًا وَقَالَ :

- يَا لَهُ مِنْ سِلَاحِ شَيْطَانِي رَهِيْبٍ ! لَا بَدَّ أَنْ نُخْبِرَ هَؤُلَاءِ النَّاسَ فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ .

- غَدَا سَنَرَى الرَّئِيسَ ، وَنَسَلِّمُهُ مَعَادَلَةَ السِّلَاحِ السَّرِّيِّ يَدًا
بِيَدٍ . . .

وَخَرَجَ يُوسُفُ فَأَخْبَرَ حَارِسَهُ بِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَرَى رَئِيسَ
الْمَجْلِسِ حَالِمًا يَسْتَيْقِظُ ، وَعَادَ لِيَسْتَعِدَّ لِاسْتِقْبَالِهِ .

وَجَاءَ الرَّئِيسُ مُسْرِعًا ، فَوَجَدَهُمْ عَلَى مَائِدَةِ الْفُطُورِ ، فَاخْتَلَى
بِهِ يوسُفُ وَكَامِلٌ فِي غُرْفَةٍ صَغِيرَةٍ ، وَأَطْلَعَهُ يوسُفُ عَلَى السِّلَاحِ
الصَّقِيعِيِّ السَّرِّيِّ الْجَدِيدِ .

وظَهَرَ الْاهْتِمَامُ الشَّدِيدُ عَلَى وَجْهِ رَئِيسِ الْمَجْلِسِ الْقَصِيرِ
الْمَمْتَلِيِّ ، وَفَكَّرَ مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَ :

- هَلْ يَعْرِفُ الصَّقِيعِيُّونَ أَنَّكُمْ تَعْرِفَانِ هَذَا السِّرَّ الْخَطِيرَ ؟
فَنَظَرَ كَامِلٌ إِلَى أَخِيهِ ، وَقَالَ :

- لَا أَظُنُّ ؛ فَقَدْ اكْتَشَفَ يُوسُفُ الْمَعَادَلَةَ بِالمَصَادِفَةِ وَهُوَ
يَتَصَفَّحُ نُسَخَ الرُّسُومِ الَّتِي نَقَلَهَا طِفْلُهُ مِنَ الْمَجْلَدِ الْمَمْنُوعِ . وَقَدْ
بَقِيَ الْمَجْلَدُ مَعَهُمْ ، رَمَتْهُ لَهُمْ وَرْدَةٌ مِنَ الْمُنْطَادِ .

فَحَرَّكَ الرَّئِيسُ رَأْسَهُ وَقَالَ :

- أنا أعرف طريقة تفكيرهم جيدًا، فإنهم لن يرتاحوا حتى يتخلصوا منكم . . .

فقال كامل مستغربًا :

- ولكن مجلدهم بقي عندهم .

فقال الرئيس :

- ذلك لا يهم . إنهم يريدون إعطاء دُرّيس للذين يفكرون في الهروب حتى لا يُحاولوا . ولكننا لن نترك لهم تلك الفرصة ! ستريان . . .

وحين خرجت العائلتان إلى المطار الصغير خارج القرية الشمسية كان أعضاؤهما متفرقين في عدة سيارات . . .

وكان كامل ويوسف متنكرين في ملابس محلية، ونظارات ولحى وشوارب غيّرت مظهرهما تمامًا . . .

وتفرقوا بين ثلاث طائرات مدنيّة وعسكريّة مسلّحة . وأثناء وداع رئيس المجلس دسّ يوسف في جيبه غلافًا مُقفلاً وهمس في أذنه :

- في جيبك نسخة من المعادلة السرية ، سلمها إلى الرئيس
بنفسك في حالة ما إذا تعرضنا لحادث .
وضغط الرئيس على يديه مطمئناً . . .
وطارت الطائرات الثلاث في اتجاه العاصمة واحدة بعد
الأخرى . . .

وفي مطارِ القصرِ الرئاسيِّ كانَ ينتظرُهُم عددٌ من رجالِ الرئيسِ ، فأخذُوهُم في سيارَاتٍ مُصفَّحَةٍ رأسًا إلى حيثُ كانَ الرئيسُ ينتظرُهُم .

وحياهُم الرئيسُ بحرارةٍ ، ورحَّبَ بِهِم ، وقَبَّلَ الأطفالَ وداعبَهُم ، ثم انفردَ بِيُوسُفَ وَكاملٍ في غرفةٍ مكتبِهِ .

وهناكَ سلَّمَهُ يُوسُفُ رِزْمَةَ الرُّسُومِ مُشيرًا إلى توقيعِ الفنانِ بُرْهانَ بُوريشَ ، والرُّمُوزِ السَّريَّةِ التي تحملُ مُعادلةَ السلاحِ الجديدِ .

وهناهُ الرئيسُ بِحرارةٍ ، ورَبَّتَ على كَتِفِهِ قائلاً :

- لقد قَدَّمتَ للبشريةِ خِدمةً عَظيمةً بإطْلَاعِنَا على هذا السلاحِ السَّريِّ الخطيرِ ؛ فحينما يَعْرِفُ الصَّقيعِيُّونَ أَننا نملكُهُ ، لنَ يَجْروُوا على استِعمالِهِ ضِدَّنَا . ويبقى توازنُ القُوى كما كانَ . ويعيشُ العالمُ في سلامٍ مدَّةً أطولَ .

ونادى الرئيس وزيره في البحث العلمي وقدم له الأخوين ،
وقال ليوسف :

- رأيتُ أن أعينكَ على رأس فريقٍ من العلماء للبحث عن
مُعَادَلَةٍ مُضَادَةٍ للمعادلة الصّقيعية حتى نصرفهم عن استعمالها
ضدّ أية دولة أخرى . وسيضعُ وزيرنا في الطّاقة تحت تصرّفك
كلّ ما تحتاجون إليه من وسائل مادية وبشرية . فهل يناسبك
ذلك ؟

فشكر يوسف الرئيس بأدبٍ جمٍّ وهو لا يكاد يُخفي فرحه
وحماسة . وقال :

- ذلك ما كنتُ أتمناه طوال حياتي يا سيدي الرئيس !

والتفت إلى كامل وقال :

- وأنت يا كامل ، لا أدري ما جعلك تترك مهنة العائلة
النّطاسية الموروثة منذ القدم ، وتمتهن الهندسة . ولكنّ العقل
العبقريّ يميّزُ حينها توجّه . وقد طلبتُ من وزيرنا أن يضعك
على رأس فريقٍ لدراسة مشروع محطّاتك الفضائية الجديدة
القليلة التكاليف ، والعمل على إنجازه .

وصافحَ كاملُ الرئيسَ وهو يبتسمُ ابتسامتهُ العريضةُ،
ويكشفُ عن أسنانهِ الكبيرةِ البيضاءِ .

وأشارَ الرئيسُ ، ففتحَ مُديرُ المراسيمِ البابَ ، ودخلتُ وردةُ
وسناءُ والطفلانِ ، وقدمتِ الزوجتانِ التحيةَ للرئيسِ ، وانحنى
هو، فقبلَ رُندةَ وأمسكَ بكتفي إهابٍ وقالَ :

- أمّا أنتَ أيُّها الفتى ، فلا ندري كيفَ نجازيكَ على
الخدمةِ العظيمةِ التي أسديتَها للبشريّةِ بذكائكَ وموهبتكَ
الفنيّةِ وقوّةِ ملاحظتِكَ وحرصِكَ على الكمالِ ! ولكننا سنفكرُ
في طريقةٍ نردُّ بها إليك هذا الجميلَ . وحتى نفعلَ ، فقد
خصّصنا لكَ مرسماً جميلاً بجانبِ غرفتكِ في دارِ والديك ،
لترسّمَ ما تشاءُ في أوقاتِ فراغِكَ ، وبعدَ انتهائِكَ من
دروسِكَ . هل يُعجبُكَ ذلكَ ؟

- جدّاً جدّاً ، يا سيدي . . .

ودخلَ مصوِّروُ الصحافةِ والتلفزيون ، وامتلأتِ الغرفةُ
الرئاسيةُ الواسعةُ بالأضواءِ والابتساماتِ والتحيّاتِ .

وهكذا بدأت عائلة النطاسي حياة جديدة في بلاد الشمس ،
بعيدة عن وجه الموجة المخيف ورجاله ومفتشيه وجواسيسه ،
ومن ضيق الغرفة الواحدة وضمنك العيش وتسلط الرؤساء
الأنذال وقتل المواهب وروح المبادرة ، إلى عالم أفضل وأجمل ،
يستطيع فيه الفرد ممارسة حرّيته ، واستثمار مواهبه وذكائه في كل
ما يعود عليه وعلى البشرية جمعاء بالخير والسعادة . . .

Obay
Obay
(01) 4911111

هذه السلسلة

تضم هذه السلسلة مجموعة
مختارة من القصص والروايات
التربوية التشويقية المختارة
للكاتب المغربي المعروف أحمد
عبد السلام البقالي، الحاصل علي
جائزة «المنظمة العربية للتربية
والثقافة والعلوم».



وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس،
وخياله الخصب، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من
مفاجأة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر، يقرب للقارئ
أحداث الماضي البعيد، ويلقي الأضواء
المستقبل، بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاضر
فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية
الحديثة للشباب في العالم العربي.

Bibliotheca Alexandrina



0355517

مكتبة

